

الرسالة

6me Année, No. 235

Lundi - 3 - 1 - 1938

بدل الاشتراك عن سنة

ص

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات

يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع عبد العزيز رقم ٣٦

العتبة الخضراء — القاهرة

ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٣٥ « القاهرة فى يوم الاثنين أول ذى القعدة سنة ١٣٥٦ — ٣ يناير سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

الرسالة

فى عامها السادس

ننقل اليوم خطوتنا السادسة في سبيلنا القاصدة إلى غايتنا البعيدة ؛ وليس لنا عدة غير الإيمان ، ولا زادٌ غير الصبر ، ولا عونٌ غير الله . وعَسِيٌّ بالمؤمن الصابر المتوكل أن يبلغ وإن طال الأمد !

تعودنا منذ صدرت الرسالة أن نتحدث إلى قرائها وأصدقائها فى مثل هذا اليوم من كل عام ، نجدد لهم العهد الذى أعطيناه ، ونعرض عليهم الشوط الذى قطعناه ، ونتصل من وراء الغيب بأرواحهم العارفة العاطفة الآسية ، نسترفه بنجواها من الشُّقّةِ الجاهدة ، ونستعين بهداها على المرحلة الجديدة

أما العهد فإننا نجدده ونوكده . ولله علينا ألا يحله إلا خروج النفْس أو نكول العافية . وأما الشوط فكان رَهَقُه محنةَ المجاهد وبلاء الدليل . انبثقت على جانبيه العوائق المثبطة من إلحاح المرض وغلاء الورق واضطراب السياسة ونغل الصداقة وشيوع الأدب الهزيل . فثبتت الرسالة فى مكانها لا تهن ، واستقامت فى طريقها لا تحيد . وطريقها هو الطريق الوحيد الذى سنَّه الخُلُق

الفاضل ؛ وهو أقرب الطرق إلى الغاية لأنه مستقيم . على أن استقامته طالما كانت — وا أسفاه — علة الإبطاء والبعد . فقد يعترضك وأنت مطمئن إلى السير فيه النهر الذى لا يُعبر ، أو الجبل الذى لا يجتاز ، أو العقبة التى لا تُقتحم ، أو السبع الذى لا يُهاجَم ؛ فتقف مضطراً تعالج هذا العائق بالعزيمة والحيلة والجهد ، لأن الأخلاق الرقيبة لا تنفك تهيب بك من جهاتك الست :

« لا تتنكب الجادّة المثلى ، ولا تزغ عن الصراط السوى »

وتنظر حواليك فلا تجد إلا الفراغ والوحشة ، لأن الركب الذى كنت تسايره راعه الأمر وخذله الصبر وأعجلته الغاية ، فتبدد ذات اليمين وذات الشمال يرتاد المسالك السهلة ، وخلَّفك وحدك على سواء الطريق عرضة للجوع والخوف ! فإذا سمعت من هذا السائر المتروك صرخة ثائرة فاعزُ حدتها إلى الحائل الذى قام ، وإلى الرفيق الذى نكص !

***

ليس من طبع الرسالة أن تمالق الرغبات بالتَّمْنية ، ولا تستميل الشهوات بالوعد . فإن العمل الصامت أنطق الأدلة على توخى الحق ؛ والماضى المعلوم أضمن الوثائق للمستقبل المجهول .

هذه مجلدات الرسالة التسعة ! أليست هى شهادتها الصادقة على أنها أوفت بما عاهدت القراء عليه من إحياء الأدب القديم ، وإنشاء الأدب الحديث ، وتدعيم الأدب المصرى بقواعد الفن ، وتطعيم الأدب العربى بنتاج الآداب الأُخَر ؟

أليست هى ديوان العرب المشترك جمعت فيه الأشتات إلى الأشتات ، ووفقت بين الأصوات والأصوات ، ثم ألَّفت من هذه الآلات المنفردة جوقة موسيقية متحدة تسكب فى مسامع الوجود أناشيد الخلود ؟

أليست هي كِتاب الشرق الجديد تجد فى صفحاته المشرقة روحيته وريحانه ، وتحس فى معانيه ومراميه إلهامه وإيمانه ؟

إن الإشادة بمجهود الرسالة حق علينا لأولئك الأقلام الكريمة التي أخلصت لله وللناس وللفن فجعلت منها هذه المجموعة التى لا تجد لها مثيلاً فى عصر من عصور اللغة

***

ليت شعري متى تغلظ الأيام فنكتب هذه الكلمة السنوية خالية من الشكاة والألم ؟ هيهات هيهات لما نَوَد ! إن شكوى الرسالة فى كل عام هى شكوى الأدب في كل يوم . وستدوم إن شاء الله ما دامت الحكومة لا تبالى الأدب ، والطبقة المتعلمة لا تقرأ الجد ، والكثرة الفاحشة لا تعرف القراءة .

قلنا وقال الناس لولاة الأمر إن الأمة لا يمكن أن تكون جسماً من غير عقل ، ومنفعة من غير عاطفة ، ومادة من غير أدب ؛ وإن الحكومة التي لا يعدو همها إصلاح الأرض وتوفير العدة وتقويم البدن لا تخلق إلا مجتمعاً من الشهوات الفاجرة والنزوات الثائرة والغرائز الخشنة ؛ وإن المدرسة وحدها لا تستطيع مهما انفسح ذرعها واتسع مداها أن تربى العقول وتهذب الأخلاق وتثقف العواطف . فأخطروا ببالكم أولئك المجاهدين فى سبيل الروح ، المجدين في خدمة الفكر ، الذائدين عن قدس الخلق ؛ أولئك هم الأدباء الأحرار الابرار الذين يبلغون رسالة الحق فى كتاب ، أو يؤدون أمانة الخير فى صحيفة . أعينوهم على أكلاف العيش بالرعاية ، وشجعوهم على إجادة الإنتاج بالجوائز . ولا تكلوهم إلى هوى النفوس وجهل العامة فينطفئوا انطفاء السراج فى عين الأعمى ، ويموتوا ميتة البلبل فى أذن الأصم

ولكن الأديب كتب عليه أن يجاهد ويجالد ويضحى . لا يستمد العون إلا من ربه ، ولا يلتمس العزاء إلا من قلبه ، ولا يبتغى الثواب إلا من سلطان ضميره .

والرسالة لا تملك أن تحيد عن الطريق الوعر الشائك الذى نهجه الله لعباده المصطفين من رجال الدين والعلم والأدب . وحسبها أن تحيا بالعمل سعيدة ، وأن تموت فى الجهاد شهيدة !

على ذلك تجدد العهد لأصدقائها وقرائها مرة أخرى ، معتمدة على فضل الله ، معتدة بإخلاص القلب ، معولة على إتقان العمل ؛ وفى بعض ذلك الضمانُ الأوفى والسندُ الأقوى والمرفأ الأمين

احمد حسن الزيات

فى الأدب وغـــيره

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

زارنى مرة لفيف من الشبان قال قائلهم : إنهم جاءوا ليسألونى عن رأيى فى الأدب ويستفتونى فى مسائل ، فساءنى هـذا ولم يسرنى ، فقد كنت مشغولاً ، وكان العمل الذى ينبغى أن أفرغ منه كثيراً ، فسألت الذى كان يتكلم : « كم سنك ؟ ولا تخش أن أذيع السر ؟ »

قال « ثنتان وعشرون »

قلت « يا أخى ، إنى كنت فى مثل سنك صاحب رأى ، فى الأدب وغيره ، وصاحب مذهب أدعو إليه وأحاول هدم ماعداه ؛ وكان لى ديوان شعر مطبوع ، وزوجة ووظيفة أيضاً . ولا أنكر أن رأيى قد تغير فى مسائل كثيرة ، ولكن هذا لماذا ؟ إنه دليل على أنى أديم النظر والتفكير والتدبر ، ولعلى كنت في أمسى على صواب ، وعسى أن أكون فى يومى على خطأ ، ولكن المرء لا يطالب بالتوفيق ، وإنما عليه أن يسعى ، وأنا أذكر لكم هذا لأنى أتعجب لكم وأستغرب أمركم . فلماذا بالله لا تنظرون بعيونكم ، ولا تفكرون بعقولكم ؟ ولماذا ينبغى أن أتعب أنا لكم — أقرأ وأحصل وأفكر وأنخل وأغربل ، وأنتم مستريحون ليس عليكم إلا أن تتجشموا تعب الحضور إلى هنا ، وإلا أن تؤدوا أجرة الترام ، أو الأمنيبوس ، ومن يدرى لعلكم آثرتم المشي فإنكم شبان أقوياء ، والأحذية التى تبلى يؤدى ثمنها آباؤكم فلا خسارة عليكم تشعرون بها ، وليبق القرش فوق القرش ليتيسر أن تقضى السهرة فى مرقص ! »

فضحك أحدهم ، ورآه الآخرون يضحك ، فابتسم البعض وقهقه البعض ، فقلت ، وأنا أحس أن عفريتا قد ركبنى : « صحيح قولوا ... كم كتاباً عنيتم بأن تشتروا في حياتكم منـذ عرفتم الكتابة والقراءة إلى الآن — أعنى غير الكتب المدرسية التى لا تفتحونها إلا لأداء الامتحان ؟ »

فلم يجيبوا ، وماذا عسى أن يقولوا ، وأنا أعرف أن هذا الجيل يندر فيه من يحصل من العلوم أو الفنون أو الآداب شيئاً غير ما يتلقى فى المدرسة ؟ وحتى الذى يفيده فى المدرسة ينساه بعد الامتحان ، ولم يسمنى وأنا أحاول أن أوقظ نفوسهم وأبث فيهم روح الطلب إلا أن أذكر كيف كنا فى صبانا نفرح بما يجتمع فى أيدينا من المال القليل ونخف به إلى المكاتب ونروح ندير عيوننا في مئات الكتب المرصوصة على رفوفها ولا نخرج إلا وقد نفد ما معنا أو كاد

وكان الذى أسخطنى على هؤلاء الشبان هذا الكسل والاعتماد على الغير ، والرغبة فى إفادة المعرفة — كائنة ما كانت قيمتها — بلا عناء أو مشقة . ومن أدراهم أن ما يسمعون منى أو من سواي هو الصواب ؟ وهم يتلقون ماتفضى به إليهم من رأى ناضج أو فطير بالتسليم والتصديق وبلا مناقشة

وأحسست من هيئاتهم ونظراتهم أن الأولى بى أن أدخر جهدى ، فأسلمت أمرى لله وقلت لهم : « تفضلوا ... سلوا مابدا لكم »

فأدنوا كراسيهم ، وقد نسوا العلقة التى استقبلتهم بها ، وأقبلوا عليّ يسألوننى عن الأدب والغاية منه ، فضحكت وقلت : « والله ما أعرف له غاية ؛ وإنى لحى ، ولكننى أجهل الغاية من الحياة ، فكيف تريدون منى أن أعرف الغاية من الأدب ؟ وأعترف أنى كنت قبل سنوات طويلات المدد ، قد أقنعت نفسى بأن للأدب غاية ، وكان الذي جسم لى الوهم هو ما قرأته فى هذا الباب ، فرحت أنسج على منواله وأقول كلاماً شبيهاً به ؛ ويتفق أن يقع فى يدى شئ مما كتبته فى ذلك الزمان فلا يسعني أن أضحك ساخراً ، لأنه كان من الجهل أو التقليد — كلا . لا أعرف غاية للأدب ... وقولوا ما شئتم ، ولكن الحقيقة هى أنى نظرت ونظرت ، وحدّقت ، وحملقت ، حتى كادت عينى تخرج ، فلم أر شيئاً ؛ وأنى فكرت وفكرت ، فلم يهتد عقلى هذا إلى شئ . وكل ما أعرفه هو أنى أزداد حيرة كلما علت بى السنّ ، وإن كل ما كنت أعده من الحقائق الثابتة يخامرنى الآن فيه شك كبير ... والسبب فى ذلك ، فيما يبدو لى ، هو أنى أتلقى ما أقرأ بالتسليم ، أما الآن فأنا أجادل وأكابر بالخلاف فى كل شئ ، وقد ينتهى بى الأمر إلى التسليم والموافقة ، ولكنى أجد لذة فى هذه المكابرة »

فسألنى بعضهم : « لماذا قل الشعر السياسى فى هذا الزمان ؟ »

قلت : « لا أدري ، وعسى أن يكون السبب أن الناس صاروا أسح فهماً للأدب ، وأتم إدراكاً له ، وأكبر عقولاً ، وأوسع نفوساً . نعم أظن هذا هو السبب ، فقد كان الشعر السياسى هو الذى يكثر فيه القول ، وكان شعراء ذلك الزمان إذا قالوا فى غير الحوادث لا يفعلون ذلك إلا على سبيل التسلى ، وليقال عنهم إنهم يجيدون النظم فى كل باب . ولكن الناس يدركون الآن أن شعر الحوادث ليس إلا باباً واحداً صغيراً من مئات وآلاف من أبواب القول ، أو من « بواباته » . ولم يكن شعر الحوادث شيئاً مستحدثاً أو جديداً ، لأنه لم يكن أكثر من ضرب من التقليد للشعر القديم ، فكما كان المتنبى يقول فى حروب سيف الدولة ، كذلك كان شوقى يقول فى الخديو وأعياده ورحلاته وفى السلطان وأعماله ، ثم بعد ذلك فى الحوادث السياسية التى يلح عليه أصدقاؤه أن ينظم فيها كلاماً . وكان حافظ يقول فى العميد البريطانى وفى سياسة الإنجليز ، لأنه لم يتصل بأمير كما اتصل شوقى ، فحل الشعر أو الرأى العام عنده محل الأمراء الذين كان الشعراء السابقون ينظمون الشعر لإرضائهم ، واقتضت المنافسة بين الرجلين أن يكون حافظ شاعر الشعب ، كما كان شوقى شاعر الأمير . وقد تغير كل هذا ، وزهد الأدب الحديث فى التقليد ، ونظر رجاله بعيونهم ، وأحسوا بأعصابهم ، وفكروا بعقولهم ، ففتحت لهم آفاق رحيبة جداً صرفتهم عن القول فى الحوادث العارضة ، وشغلتهم بما هو أعمق وأصدق فى الحياة ؛ فلست تراهم يقولون فى الحوادث إلا إذا استفزت نفوسهم وحركتها تحريكاً قوياً يجرى الشعر على ألسنتهم ، لا تكلفاً ولا تقليداً ، بل لأنهم لا يسعهم فى هذه الحالة إلا أن يقولوا . ولا شك أن ثم أسباباً أخرى ، أسوق منها على سبيل التمثيل ، أن الأدباء يعمل أكثرهم فى الصحف ، وهم يكتبون كل يوم تقريباً فى الحوادث ، فلا معنى لأن يقولوا الشعر فيها أيضاً ، إلا إذا عرضت مناسبة فذة قوية تحرك النفس كما قلت . والكتابة أسهل ، والإقناع بها أقرب ، والشعر لا يصلح للجدل السياسى كما تصلح الكتابة ، ولكنى أعتقد أن صحة الإدراك للأدب هي السبب الأول ، كائنة ما كانت الأسباب الأخرى . ولا مانع من أن يقول الشاعر فى السياسة والحوادث إذا أحس دافعاً إلى ذلك ، كما يقول فى غير ذلك إذا بعثته البواعث »

فنهضوا ، ومدوا أيديهم ليصافحونى ، وتمتم بعضهم بالشكر ، فابتسمت وقلت لهم « والله إنى لتحدثنى نفسى بأن أنقض لكم كل ما سمعتم منى ، وأن أثبت لكم أن كل ما قلت خطأ فى خطأ ، وأن الصحيح والصواب غير ذلك . وإنى لقادر على هذا . والسر فى قدرتى أنى أراكم أهملتم هذه العقول التى ركبها لكم الله ؛ ولا شك أن له سبحانه وتعالى حكمة فى خلق عقول لا يريد أصحابها أن ينتفعوا بها . فليتكم تستطيعون أن تعيرونى بعضها ما دمتم لا تنتفعون بها ، فإن رأسى قد كل وتعب ومل »

فضحكوا وانصرفوا ، وقعدت وأنا أهز رأسى وأمط بوزى آسفاً متعجباً ...

ابراهيم عبد القادر المازنى

ليلى المريضة بالعراق

للدكتور زكى مبارك

— ٤ —

— ضابط فى الجيش العراق أبوه من مصر وأمه من لبنان ؟ كيف اتفق ذلك يا ظمياء ؟

— لذلك يا سيدى تاريخ ...

— انتظرى قليلا ... قبل أن ندخل فى تاريخ ليلى مع الضابط عبد الحسيب ، أحب أن أسأل : هل كان حبها لذلك الضابط أول حب ؟

— نعم يا سيدى أول حب

— منذ كم سنة أحبت ذلك الضابط ؟

— منذ اثنى عشر عاماً

— تذكرى يا ظمياء أنك قلت إن ليلى فى حدود الأربعين فهل يُعقل أن تظل عذراء القلب إلى الثامنة والعشرين ؟

— نعم يا سيدى ، وما أقوله تشهد به الست جميلة ، وتعرفه الخالات والعمات والجارات فى شارع العباس بن الأحنف وشارع صريع الغوانى

— ولكن هذا غير معقول ، فما يمكن أن تظل فتاة عذراء القلب إلى الثامنة والعشرين !

— أنت يا سيدى غريب بهذه المدينة ولا تعرف النساء فى بغداد

— بغداد فى عينك يا ظمياء ! وهل بغداد تحمى المرأة من أن تكون لها عين تنظر وقلب يميل ؟

— أؤكد لك يا سيدي أن ليلى لم تحب أحداً قبل الضابط عبد الحسيب

— ولكن كيف اتفق أن تظل بلا زوج إلى الثامنة والعشرين ؟

— لقد حفيت أقدام الخاطبين وهي ترفض بلا سبب معقول

« فدونت فى مذكرتى أن الفتاة التى ترفض الزواج ، ويطول بها ذلك ، لا بد أن تكون أصيبت بنوبة حب ، ولا بد أن يكون ذلك الحب بصورة لها فحولة الرجل فى صورة فلسفية أو أدبية ، ولكن هذا الحب سيظل مجهولاً ما دامت ليلى تكتمه ، وما دام النساء اللائى يحطن بها يتمتعن بقسط وافر من الغفلة ، على قلة ما نرى من النساء الغافلات . ويظهر أن موقفى سيكون دقيقاً فى المؤتمر الطبى ، لأن المؤتمرين سيسألون عن الصور الفلسفية والأدبية لفحولة الرجال فى أخيلة النساء ، ولكن لا بأس فهى فرصة طيبة لشرح آراء شيث بن عربانوس فى هذه القضية . على أنى سأجد مفاتيح هذا السر المدفون حين أقف على قصة الضابط عبد الحسيب ، وربما كان من الخير أن أرجع إلى البحث الممتع الذى نشره الدكتور عبد الواحد بك الوكيل عن أثر الحب فى الأمراض العصبية »

— دكتور ! ماذا تكتب ؟

— اسمعى يا بلهاء

— هذا جزاء من يصنع الجميل !

— أستغفر الله ! إنما أردت أن أقول اسمعى يا ظمياء . أنا يا بنيتى أقيد ملاحظات تنفعنى في مداواة ليلى ؛ ومرضها كما تعلمين عصيب ، وأحب أن أستعد لمداواتها أتم استعداد ، والله المعين

« ولكن ألا يمكن أن يقال إن ليلى مرضت فى صباها بالغفوة الروحية ، ولم تفق إلا فى الثامنة والعشرين ؟ ومن يصدق حديث الغفوة الروحية ؟ لقد كنت الطبيب الوحيد الذى استكشف هذا المرض الخبيث ، وألقيت عنه محاضرة فى باريس بعد أن أديت الامتحانات النهائية فى الطب ، ثم نشرت خلاصة بحثي في المجلة الطبية المصرية ، ولم أظفر ، وا أسفاه ، بغير السخرية يواجهنى بها زملائى فى مصر ، ويراسلنى بها أساتذتى في باريس »

— دكتور ، ألا ترى كيف أفقفق من البرد ؟

— اسمعى يا بلهاء ، فما عندى لك دفء

« وما الذي يمنع من انتهاز هذه الفرصة الثمينة ، فرصة انعقاد المؤتمر الطبي في بغداد ، لاعلان نظرية الغفوة الروحية بطريقة دولية ؟ إن الشواهد تحت يدي ، فأنا أعرف ناساً بأعيانهم انخرطوا فى سلك الكهنوت وهم شبان ، وعاشوا عيش الطهر والعفاف إلى سن الثلاثين . ثم استيقظت أرواحهم فجأة فهربوا من الكنائس والصوامع وأقبلوا على الدنيا إقبال المنهومين ، ومنهم صديق فلان الذى عرفته فى حانات مونمارتر سنة ١٩٢٧ وصديقي

فلان الذي عرفته في مرقص الكوبول سنة ١٩٣٣ ، ولكن كيف أقول هذا الكلام في المؤتمر الذي يعقد في بغداد وأنا أشتغل بالتعليم في بغداد ؟ الخطب سهل : أنا أتكلم في المؤتمر باسم الدكتور مبارك الطبيب ، والناس جميعاً يعرفون أني أحرزت الدكتوراه في الطب قبل أن أحرز الدكتوراه في الآداب ».

— دكتور ، أروح ؟

— وين تروحين ؟ اجلسي يا بلهاء

— أنا اسمي ظمياء

— اجلسي يا ظمياء

«ولماذا أفضح نفسي في المؤتمر بأحاديث مونمارتر ومونبارناس؟ لماذا لا أكتفي بالشواهد التي أعرفها في مصر ؟ ألم يكن صديقنا فلان من أعف الناس في صباه ؟ ألم يكن يحوقل ويستغفر ويسترجع حين يطرق أذنيه بيت من النسيب ؟ رحمة الله على أيامه الطيبات ، أيام كنا نتقرب إلى الله بتقبيل يمناه ! فمن يصدقني اليوم إذا قلت إنه كان في صباه فتى عفيفاً ؟ وكيف يصدقني الناس إذا ادعيت ذلك وهو اليوم ألطف ما جن وأظرف عربيد ؟ ! »

— دكتور !

— اخرسي يا بنت !

— شنو ؟

— ما أدري شنو ! !

« إن حال ليلى في جوهره يرجع إلى فرضين : الفرض الأول أن تكون رأت في مطلع صباها صورة مست شغاف القلب ثم اختفت تلك الصورة ، وظلت المسكينة تترقب ملامحها في أوجه الخاطبين بدون أن يتحقق لها رجاء ، فلما وقع بصرها على الضابط عبد الحسيب رأت فيه ملامح الحبيب الضائع فأقبلت عليه وقد استيقظ هواها القديم يقظة مرعبة ضجت لها بغداد ؛ والفرض الثاني أن تكون أصيبت بالغفوة الروحية ، ذلك المرض الخطر الذي تفردت باستكشافه والذي سيجعل لي مقام صدق في عالم الطب ، وقد عاشت المسكينة تحت سيطرة هذا المرض إلى أن بلغت الثامنة والعشرين ثم عوفيت فجأة ، فكانت عيناها الناعستان وابتسامتها الساحرة من نصيب الضابط عبد الحسيب »

— دكتور ! طال مقامي عندك ، وليلى ستظن الظنون !

— أي ظنون يا ظمياء ؟

— قد تحسبك كالطبيب فلان الذي خُرِّبت عيادته بسبب امرأة ألمانية كانت تزوره في العشيات

— وأنت تلك الألمانية يا ظمياء ؟ ما هذا الغرور الفظيع الذي لا تخلو منه امرأة شوهاء !

« وهنا ضحكت المرأة جميلة ضحكة رجّت أركان البيت ».

— اعقلي يا ظمياء ! أنا رجل غريب ، والغريب يدخل سجن الفضيلة وهو راغم . فأنت في حماية هذا التخوف ، تخوف الغريب من قالة السوء . وسأعيش في بلدكم ما أعيش ، ثم أخرج باذن الله وأنا أبيض الصحائف وضاح الجبين

— هل معنى ذلك أني في أمان ؟

— في أمان يا ظمياء ، سبحان الله !

— أنت تهينني ! فأنا عندك فتاة شوهاء لا تهيج الغواية في قلوب الرجال !

« وهنا دونت في مذكرتي أن المرأة لايسرها أن تكون في أمان ، لأنها لا تكون في أمان إلا حين تزهد فيها القلوب . وأشهد أن ظمياء فتاة شريفة ، ولكن تغلب عليها نزعة الجنس ، فهي تحب أن يكون شرفها بفضل التصون ، ويؤذيها أن تصل إلى الشرف عن طريق الزهد ، الزهد فيما تدعيه لنفسها من حسن مرموق »

— دكتور ، أروح ؟

— وين تروحين ؟ حدثيني عن قصة ليلى مع الضابط عبد الحسيب

— كانت بداية القصة في سنة ١٩٢٦ حين ثار حزب الشعب على المرحوم عبد المحسن السعدون ، وكانت الجرائد العراقية أطنبت في وصف المعرض الزراعي والصناعي الذي أقيم في الجزيرة بالقاهرة في ذلك التاريخ ، وكانت ليلى ضجرت من ضجيج السياسة في بغداد فاستأذنت والديها رحمهما الله لترى ذلك المعرض علها تنسى ضجيج بغداد ، فرفض أبوها ، وشجعتها أمها ، والمرأة تغلب الرجل حين تشاء ، فلم ينتصف شهر آذار ، شهر الأزهار والرياحين ، إلا وليلى تطالع سِفر الحياة على شواطىء النيل وطن مولاي الطبيب

« للحديث بقية »

زكي مبارك

سنان شيخ الجبل

صفحة من تاريخ الأدب السياسي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

فى القرن السادس الهجري (القرن الثانى عشر الميلادى) كانت الأمم الإسلامية تجتاز مرحلة عصيبة من تاريخها ، ففي هذه الحقبة استقر الفرنج الصليبيون في فلسطين وثغور الشام ، وقامت مملكة نصرانية لاتينية في بيت المقدس فى قلب ديار الإسلام ، وانقسمت الكتلة الاسلامية فى المشرق إلى دويلات صغيرة متنازعة ؛ ونشب بين الإسلام والنصرانية فى تلك المهاد صراع مستمر طويل الأمد ؛ وكانت المعارك سجالاً بين هذه القوى الخصيمة المتفرقة ؛ ولكن الفرنج الصليبيين احتفظوا لأنفسهم مدى حين بنوع من التفوق ؛ ذلك لأن الخلافة الفاطمية كانت تجتاز مرحلة انحلالها ، وكانت الإمارات الاسلامية فى شمال الشام مشغولة بمعاركها المحلية ؛ وكان الفرنج ينتهزون الفرص السانحة فيعملون على إذكاء الخلاف ويظاهرون أميراً على أمير ، ويحققون لأنفسهم ما استطاعوا من الأسلاب والمغانم

ففى تلك الفترة العصيبة المضطربة كانت الشام فوق كونها مسرحاً للحروب الأهلية والمعارك الصليبية المتواصلة مسرحاً لنشاط بعض الجماعات السرية التي الفت فرصتها فى تلك الفوضى السياسية والاجتماعية الشاملة ، وكانت فى مقدمة هذه الجماعات طائفة فرسان المعبد أو الدواية ، وطائفة الاسبتارية [1] وطائفة الإسماعيلية الباطنية ؛ وكانت الأولى والثانية طائفتين نصرانيتين ظهرتا بعد قيام المملكة الصليبية ، وأنشئتا فى البداية لبواعث وظروف دينية ، ثم انقلبت كلتاهما بعد ذلك إلى جمعية سرية فدائية وكانت الثالثة تحسب ضمن الطوائف الاسلامية المذهبة ، وقد أنشئت فى أواخر القرن الخامس على يد داعية اسماعيلي بارع هو الحسن بن الصباح الحميرى ، وتظمت أولاً فى شمال فارس ، حيث استحالت غير بعيد إلى عصابة إرهابية قوية تعتصم ببعض القلاع المنيعة ، وتعتمد فى تنفيذ مآربها على الارهاب السياسى والاغتيال المنظم ؛ وفى أوائل القرن السادس لما اشتدت مطاردة الأمراء السلاجقة للاسماعيلية فى فارس ، فر بعض دعاتهم إلى الشام ، ولبثوا حيث يبثون هناك دعوتهم سراً ؛ وكان الأمراء المحليون مثل صاحب حلب وصاحب دمشق يلجأون أحياناً إلى هؤلاء الدعاة الخطرين فى تنفيذ مشاريعهم واغتيال خصومهم ، وبذلك أضحوا قوة سياسية يحسب حسابها ، ولما كثر جمعهم وقوى أمرهم طلب زعيمهم بالشام بهرام الاستراباذى من صاحب دمشق حصناً يأوى إليه مع أنصاره ، فأقطعه قلعة بانياس (سنة ٥٢٠ هـ) ، فتحصنوا بها ، ولم يأت منتصف القرن السادس حتى كانت لهم فى الشام سلسلة من القلاع المنيعة بين طرابلس وحماة ، يتخذونها قواعد للإغارة والدفاع ، وحتى غدوا عاملا قوياً فى حوادث هذا العصر وتطوراته

كان الدواية والأسبتارية يعملون فى البداية لخدمة القضية الصليبية ونصرة الأمراء الصليبيين ، وكانت نظمهم ووسائلهم تشبه من بعض الوجوه نظم الاسماعيلية ووسائلهم من حيث اعتمادهم على التآمر والدس والاغتيال المنظم ؛ ثم استحالوا غير بعيد إلى جماعات سرية نفعية ترتكب جرائمها ، وتبحث عن مغانمها حيثما استطاعت دون النظر إلى اعتبار الدين أو القومية . أما الاسماعيلية فإنهم بالرغم من ثوب الرياء المذهبي الذى أسبغوه على عقائدهم الدينية والسياسية ، ظهروا على مسرح الحوادث طائفة مغامرة لا عهد لها ولا ذمام تبحث وراء طالعها فى هذا المعسكر أو ذاك ، وتتقلب فى خدمة المسلمين والفرنج طبقاً للحوادث والظروف ، وتدس ما استطاعت بين أمراء الفرنج وأمراء المسلمين لتجنى ثمار دسها ؛ وكان يحسب حسابها أعظم وأقوى الأمراء من الفريقين ؛ وقد ارتكب دعاتها عدة جرائم سياسية رنانة ذهب ضحيتها جماعة من أكابر الأمراء والقادة ، وكان لها أثر كبير فى تطور الحوادث والمعارك فى بسائط الشام

* * *

كان الإسماعيلية يمثلون فى الشام نفس الدور الذى كان يمثله زملاؤهم فى فارس ، وكان أولئك الدعاة والمتآمرون الأذكياء

---

(١) الأولى هى بالفرنسية Les Templiers والثانية Les Hospitalies

يبثون أينما حلوا بذور التوجس والروع ، وكانوا يمتنعون بقلاعهم الشاهقة يتحينون فرص العمل الخفي الغادر ؛ وكان الفدائية منهم — وهم الذين يناط إليهم تنفيذ الجرائم السياسية — رجالاً من أخطر طراز يمتازون بالإقدام المدهش ، لا يتهيبون الموت ، ولا يردهم عن غايتهم شيء ؛ ولم يتخذ زعماء الإسماعيلية قط لقب السلطنة أو الإمارة ، ولكنهم كانوا يقنعون بلقب المقدم أو الشيخ أو شيخ الجبل ؛ وكان هذا اللقب الأخير يطلق بنوع خاص على زعيم الإسماعيلية في الشأم ، وإن كان الرحالة مركوبولو الذى عرف الإسماعيلية ودعاتهم فى فارس يحدثنا بأن كبيرهم ينعت أيضاً بشيخ الجبل ؛ وعلى أى حال فإن كلمة الشيخ تعنى هنا السيد أو الرئيس خلافاً لما ذهب إليه الرواة الفرنج المعاصرون من اعتبارهم الشيخ هنا بمعنى « الرجل العجوز » ، وهو خطأ شائع في معظم التواريخ الفرنجية

وكان مقدم الاسماعيلية أو شيخ الجبل فى الشام فى أواسط القرن السادس زعيماً وافر الجرأة والذكاء هو راشد الدين سنان ابن سلمان ؛ ولا تعرف الرواية سناناً إلا بأنه مقدم الاسماعيلية ، ولا تحدثنا عن أصله ونشأته ، ولكن لا ريب فى أنه أحد أولئك الدعاة المغامرين الذين يكتنف الغموض حياتهم الأولى ، ثم يظهرون فجأة على مسرح الحوادث . وكان مقره فى حصن مصياب (أو مصياف) على مقربة من طرابلس وهو يومئذ أمنع حصون الاسماعيلية بالشام ؛ وكان هذا الداعية الاسماعيلي يخفى مشاريعه ومطامعه الدنيوية تحت ستار من الورع المؤثر ، ويبدو دائماً فى صفة الإمام الديني ، ويرتدى الثياب الخشنة ، ويعظ أنصاره طول اليوم من فوق رابية ، ويحيط كل حياته بحجاب من الغموض حتى قيل إنه لم يوقظ نائماً أو آكلاً أو شارباً ؛ على أنه كان بالرغم من هذه المظاهر الورعة الخلابة مغامراً لا ذمام له ، يتربص فرص الوثوب والفتنة ، ويتقلب فى خدمة الصديق والعدو معاً ؛ ولم ير سنان بأساً من محالفة الفرنج الصليبيين ، فنراه يتصل بأمورى ملك بيت المقدس ، ويرسل إليه الداعى بهاء الدولة سفيراً ليسعى لديه إلى إعفاء الاسماعيلية من الجزية التى تعهدوا بدفعها ؛ وينجح السفير فى مهمته ، ولكن قتله الدوايه (فرسان المعبد) حين عودته ؛ وخشى ملك الفرنج عواقب هذه الجريمة ، فاعتقل القتلة وقضى عليهم بالسجن ، وذلك استبقاء لمودة الاسماعيلية واتقاء بطشهم

ولعب سنان فى حوادث هذه الفترة دوراً عظيما ؛ ومع أنه لم يكن قوياً بجسمه وقواه المادية ، فقد كان قوياً بدسائسه ووسائله الإرهابية الخطرة ؛ وكان أمراء الشام المسلمون يرهبون جانبه ويلتمسون محالفته ؛ ولما تألق نجم صلاح الدين وقبض على زمام الأمور فى مصر اتجهت أبصار خصومه إلى الاسماعيلية أو الحشيشية كما تسميهم الروايات المعاصرة ، لما عرف من أنهم كانوا يأكلون أوراق الحشيش ؛ فى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) دبر أنصار الدولة الفاطمية الذاهبة مؤامرة لقلب حكومة القاهرة ، واغتيال صلاح الدين ، وفكروا فى الاستعانة بالفرنج كما فكروا فى الاستعانة بسنان شيخ الجبل ، فبعثوا إليه ليدبر كميناً لاغتيال السلطان (صلاح الدين) على يد بعض الفدائية سواء فى الشام أو فى مصر ووعدوه بالمنح والعطايا الجزيلة ؛ ولكن سرعان ما افتضحت المؤامرة وقبض على مدبريها وأعدموا ، ولم تسنح الفرصة فى هذه المرة ليعمل شيخ الجبل ؛ ولكن الفرصة سنحت غير بعيد ؛ فى أوائل سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) كان صلاح الدين على رأس جيشه فى شمال الشام على مقربة من حلب ، وكان من برنامجه سحق الإمارات المستقلة التى تمزق الشام وتجعل منه فريسة هينة للفرنج الصليبيين ؛ وكان أتابك الموصل عز الدين مسعود يخشى على ملكه إذا استولى صلاح الدين على الشام ، فاتفق مع سنان شيخ الجبل على اغتيال صلاح الدين أثناء وجوده بالشأم ؛ وكان الاسماعيلية أو الحشيشية يرون فى تقدم صلاح الدين خطراً داهماً على سلطانهم فكانوا يرحبون بكل مؤامرة أو مشروع لسحقه ؛ فى الحال بعث سنان بعض الدعاة الفدائية إلى معسكر السلطان (صلاح الدين) فاندسوا إليه متنكرين . وفى ذات مساء استطاع أحدهم أن يصل إليه وهو فى خيمة بعض الأمراء يفحص خطط الدفاع ، ثم انقض عليه وطعنه فى رأسه بخنجره ، وكان صلاح الدين يعرف غدر الباطنية ويحترز منهم بارتداء الدروع المصفحة ، فحالت قلنسوته الصلبية دون إصابته ؛ فحول القاتل عندئذ خنجره إلى خده فجرحه جرحاً شديداً ، ثم دفعه إلى الأرض وحاول أن يجهز عليه ؛ وذهلت بطانة السلطان لهذه المفاجأة الغادرة مدى لحظة ، ولكنهم بادروا إلى القاتل ، وطعنه

أحد الأمراء بسيفه فأرداه ؛ فبرز من جوانب الخيمة آخرون من الباطنية الفدائية متنكرين فى زي الجند ، وحاول أحدهم أن ينقض على السلطان ، فتلقاه بعض البطانة وقتلوه ، واشتد الاضطراب والهرج ، وقتل فى هذه الواقعة عدة من الدعاة الاسماعيلية ؛ ونجا صلاح الدين من خناجرهم بأعجوبة ، وانهار مشروع شيخ الجبل وحلفائه مرة أخرى

وأدرك صلاح الدين ما يحيق به وبسلطانه من الخطر من غدر الاسماعيلية ومؤامراتهم ، فعول على مهاجمة قلاعهم وسحق نفوذهم ، فسار إليهم فى العام التالى (سنة ٥٧٢ هـ) ، وحاصر مصياب أمنع قلاعهم ، وفيها مركز زعامتهم ؛ فاستغاث سنان شيخ الجبل بصاحب حماة وهو خال السلطان ، ورجاه أن يشفع لديه فيهم ، وتعهد له بالتزام الحيدة والولاء نحو السلطان ، وهدده فى نفس الوقت إذا أبى هذه الشفاعة ، فخشى الأمير من وعيدهم ، وبذل وساطته لدى السلطان حتى أقنعه بالعفو عنهم ، فغادر قلاعهم بعد أن أخذ عليهم المواثيق والعهود ؛ ولزم الاسماعيلية وزعيمهم بعد ذلك خطة الولاء نحو السلطان إما خشية سطوته ، وإما لأنهم خشوا رجحان كفة الصليبيين إذا اختفى صلاح الدين من الميدان

ولبث الاسماعيلية من بعد شيخهم سنان زهاء قرن آخر ، يتنعون بقلاعهم فى الشام ، وينتهزون فرص المعارك والأحداث المختلفة ليظهروا على مسرح الحوادث حيثما آنسوا الغنم ، وشغل بلاط القاهرة عنهم طوال هذه الحقبة بمكافحة الفرنج ورد الخطر الصليبي ؛ فلما كان عهد الظاهر بيبرس ، سارت حملة مصرية إلى الساحل فى سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) ، وحاصرت قلاع الاسماعيلية ، واقتحمت مصياب أمنع حصونهم ومقر زعامتهم وخربت قلاعهم ومزقت قواهم كل ممزق ؛ وبذلك انهار نفوذهم في الشام كما انهار فى فارس قبل ذلك بقليل واستحالت هذه الطائفة الإرهابية الخطرة بعد ذلك إلى شراذم لا أهمية لها سواء من الوجهة السياسية أو المذهبية ، وانتهى بذلك تاريخها الحافل بالجرائم والمؤامرات المدهشة

محمد عبد الله عنان

فى ليلة رأس العام

أنا ... بين الطبيعة والله !

للأستاذ على الطنطاوى

انصرف الطلاب إلى بنية النوم حين سمعوا الساعة الكبيرة تطنّ عشر طنات ، وخلت رَدْهة المكتبة ونشر عليها الصمت أجنحته السود ، فلم أكن ألمح فى خلاله إلا رنين طنّات الساعة وأصداء أصوات الطلاب الذين كانوا هنا منذ لحظة واحدة يتسامرون ويتحدثون ... ترنّ هذه الأصداء فى أذنى ، فإذا أنا أراها بعينى تتراقص بين طيات الصمت الأسود حتى تنحدر إلى أغواره العميقة ، ويشمل السكوت الرهيب بنية التدريس (فى كلية بيروت الشرعية) ويتمدّد فى أبهائها وغرفها وممرّاتها ...

فجلست أصغى إلى أناشيد الصمت التى كانت تسمع من حولى باستمرار فأجدها تملأ قلبى مرارة وأسى ...

ثم رفعت رأسى فُجاءَةً إلى التقويم فنظرت فيه وجمد بصرى عليه ... أمن الممكن هذا ؟ أيحدث هذا كله فى هدوء ... يموت فى هذه الليلة عام ويولد عام ، يمضى الراحل بذكرياتنا وآلامنا وآمالنا إلى حيث لا يعود أبداً ، ويقبل القادم فاتحاً ذراعيه ليأخذ قطعة من نفوسنا ، وقسما من حياتنا ، ولا يعطينا بدلاً منها شيئاً ... وهل الحياة إلا أعوام فوق أعوام ؟ وهل النفوس إلا الذكريات واللذائذ والآلام ؟

وجلست بين المأتم والمولد أفكر وأتذكر وأحلم ... ولقد تعوّدت أن أجلس هذه الجلسة كلما تصرّم عام ، أصفّى حالى مع الحياة ، أنظر ماذا أخذت ، وماذا أعطيت ، وأراقب هذه القافلة من السنين التى بدأت مسيرها منذ ... منذ بدأ الزمان ، لست أدرى متى بدأ الزمان ، والتى تنتهى حيث لايدرى أحد

تعوّدت أن أعطى نفسى من فكري ساعة فى العام ، أفكر فيها فى نفسى وفى الوجود ...

* * *

نظرت فلم أجد حولى إلا كتاب التفسير أحضر منه درسى

الذى سألقيه غداً ، وكتب البلاغة التى أكسر بها دماغى وأدمغة الطلاب فى غير طائل ... فنحيتها كلها ووجدت ركام (الوظائف) التى يجب علىّ أن أنظر فيها وأصححها ، وأقرأ كل ماتفيض به هذه القرائح الفتية من سخف وهراء ، يدعوه أصحابه (إنشاء) ... فبعثرتها فى غيظ وحنق ...

أنا فى هذا البلاء منذ عشر سنين ، عشر سنين يالها من دهر طويل ! كان ربيع حياتى ، وزهرة شبابى ، أضعته كله فى هذا العناء ، فماذا استفدت ؟ لا شئ إلا أن أحرقت نفسى كالشمعة لأضئ لهؤلاء الفتية طريقهم إلى المجد ، هؤلاء الذين أحببتهم وأخلصت لهم الحب ، وعشت بهم دهراً ولهم ، واعتصرت ماء شبابى لأنضّر شبابهم ، ثم فرّق الزمان بينى وبينهم ، فلم أعرف مكانهم من الشام أو العراق ، ولم يعرفوا مكانى لأنهم لم يفكروا فى أن يعرفوه ...

إذن فأنا أحترق كالشمعة ! ياللحقيقة المرّة المروّعة ! يالشمعة شبابى التى ذوت وخبت وأوشكت أن تنطفئ !

إنى أعيش فى العدم ، أعيش فى الماضى بالذكرى ، وفى المستقبل بالأمل ، مع أن الحاضر وحده هو الموجود ، لقد مضى الغد إلى حيث لا رجعة ولن يأتى المستقبل أبداً ...

أين هو هذا المستقبل ؟ ومنذا الذى يستطيع أن يصل إليه ؟ لقد جلست فى مثل هذه الليلة من العام الذى يموت الآن ، فى شرفة منزلى بالأعظمية (بغداد) أحلم بالمستقبل بهذه الليلة التى كانت هي مستقبلى ، أسعى إليها ، وأؤمل أن أدركها ، فلما أدركتها صارت (حاضراً) ، وطفقت أسعى إلى مستقبل آخر . إننى كالثور يسعى ليدرك حزمة الحشيش التى يراها على شبر واحد منه فيهلكه السعى ، ولا ينالها أبداً ، لأنها معلقة بقرنيه تسعى أمامه !

يومض شعاع الأمل من بين فرج الغد ، فنسعى لندركه فلا نجده إلا سرابا . إن الأمل مصباح لا يضيء إلا من بعيد . أفليس من سخافات الفكر الانسانى أن يضع فى اللغة كلمة الأمل ولفظة المستقبل ؟ أليس وجودها فى المعاجم دليلاً على تأخر البشرية وانحطاطها ، وأنها لم تدرك بعد حقائق الحياة ؟

لقد كنت فى (الأعظمية) غبياً جاهلاً ، لأنى كنت مطمئناً متفائلاً . كنت كلما ودعت بالخيبة عاما ، انتظرت آمالى عند آخر ، ولكنى صحوت الآن فلا آسف على ماض ، ولا أؤمل فى مستقبل

لقد قدر علىّ ألا أشهد ولادة العام إلا غريباً عن موطنى بعيداً عن أهلى تارة فى مصر ، ومرة بالحجاز ، وحيناً فى العراق . وهأنذا الآن غريب من جهتين : هذا السد الهائل من الجبال : جبال لبنان بينى وبين إخوتى فى دمشق ؛ وهذا البحر الواسع بينى وبين أخى فى باريز ؛ والدهر والأبدية بينى وبين آمالى ؛ والقبر بينى وبين والديّ ؛ وأنا بعد هذا كله غارق فى كتب البلاغة ، (ووظائف) الانشاء ، نسيت مشروعاتى الأدبية التى رسمت خططها ، وأقمت أسسها ، وأهملت بحوثى ومطالعاتى ، وبعت ذكائى ومواهبى وشبابى برغيف من الخبز ...

هذا ما قدر علىّ ، وإنى راض بما قدر !

* * *

انى أعيش الآن بلا غاية ، ولكنّ غايتى أن أعيش ، أن أثبت وجودى فى هذه الدنيا ، كتلميذ كسلان ما جاء ليتعلم ، ولكن ليعدّ فى التفقد موجوداً ، أو موظف خامل مقصر ...

فلماذا إذن أعيش ؟

ألأن لى حق الحياة ؟ فلماذا لا يكون لى إذن حق الموت ؟ ألا أملك أنا أمر نفسى ، ولكن من أنا ؟ ومن نفسى ؟ أأنا اثنان فى واحد ؟ ...

إننى لا أستطيع التفكير فى هذا ...

* * *

وملأ نفسى الشعور بالوحشة ، وأحسست فى نفسى وفيما حولى فراغاً مخيفاً ، وشعرت كأن هذه الغرفة تتسع ثم تتسع ، حتى صار بين الجدران فضاء لا يدركه البصر !

ثم ضاق بى الفضاء — حتى كدت اختنق فيه ، فخرجت إلى الشارع ... وكان موهن من الليل ...

* * *

تركت ميدان البرج يضحك بالكهرباء ، ويرقص على ألحان الأشعة ، التى تنسكب على الميدان من ذرى البنى الرفيعة فتغمره بجو فاتن وتسيل على جوانبه ، وتنسج فوقه شبكة من الأشعة منسوجة من ملايين الخيوط الملونة بمئات الألوان ، وتركت الناس يحتفلون بعيد رأس السنة ، يتأملون معانى الوجود ، وفلسفة الخلود ،

وحقيقة الزمان فى هـذه المراقص الصاخبة ، الغارقة فى الخمر والعهر ...

ويممت شطر البحر أمشى فى الطرق المظلمة المنعزلة الخالية إلا من أعقاب السابلة ممن هو حليف البؤس أو الرذيلة نخلا الجو لفكرى فانطلق ...

قالت النفس : إن العالم يموت ، أفلا نودّعه بحسرة ... أو نسكب على جدثه عبرة ؟

فلم يعرف العقل ما هو الموت ولم يصدق بوجوده ...

قال العقل : ما هو الموت ؟ إن كان انتقالاً من حال إلى حال فليس موتاً ؛ وإن كان الموت عدماً فإن العدم ليس له وجود أبداً

قلت : ولـكن أبى قد مات ؟

قال : لا ، إنه لم يمت ، إنك تذكره ويعيش حيًّا في ذاكرتك ، وليس في الذاكرة شيء ليس له وجود فى الواقع

قلت : وأين يوجد ؟

قال : لست أدرى ، هو فى ذاكرة الـكون

قلت : إن العام يموت الآن !

قال العقل : إن العام (٣٦٥) يوماً وبعض من اليوم هو ست ساعات و(٤٧) دقيقة ، وبعض منها هو (٣٣) ثانية ، وبعض الثانية فلنفرض هذا البعض (٢٠) ثالثة ، وبعض الرابعة فلنفرض هذا البعض (٢٥) خامسة وبعضاً ... وهكذا يمشى العقل حتى يصل إلى أصغر الأجزاء الزمنية ، ولـكنه لا يزال يمشى لا ينتهى أبداً ... إن عام الهجرة مثلاً لا تزال له بقية فى الوجود ، أجزاء من الزمن بالغة فى الصغر حداً لا يدركه العقل ، ولـكن تدركه الذاكرة ... إن هذه البقايا هي ذكريات الأعوام الماضية فى نفس العام الجديد !

قلت : إنى لم أفهم شيئاً !

وقفز عقلى فجأة من أجزاء الزمن الصغيرة إلى الزمان المطلق ، وراح يمشى على هـذا الخط الطويل يقطعه فى لحظة ، ولـكنه لا يستطيع أن يبلغ طرفيه ، فلا ينى يحاول بلوغهما ولا ينقطع عن السؤال ... إلى أين ينتهى هذا الخط ؟ من أين يبدأ ؟ أليس له نهاية ؟ ما هى اللانهاية ؟

وذهب العقل يفكر : إن عمر عشر حشرات ساعة من عمرى ، وعمر عشرة رجال ساعة من عمر الصحراء ، وعمر الصحارى كلها ساعة من عمر الشمس ، فما هى الساعة إذن ؟ ما هو العام ؟ ما هى حقيقة الزمان ؟

وما هو المكان ؟ إنى لم أر مكاناً قط ، ولم أر إلا موجودات لا أعرف نهايتها ، ولا أدرك آخرها ، فكيف لى أن أرى مكاناً ليس فيه شئ ؟ ماحقيقة المكان والزمان ؟ ماعمرهما ؟ ماذا وراءهما ؟

ألا أستطيع أن أعرف هذا العالم الهائل الذى تحجبه عن عينى هذه الطبيعة كما تحجب الكف الدنيا الواسعة وهي كف واحدة ...

وضجرت من هذه الفلسفة ، فانصرفت عن العقل وتركته يهذى وحده

وكنت قد بلغت البحر ، فوقفت فى حجر الطبيعة أتأمل وأناجى وأحلم ...

لقد نفضت يدى من الناس ولجأت إلى هذه الطبيعة السخية الوفيّة الوادعة الجميلة أجد عندها أنس نفسى وراحة قلبى ، أنظر إليها فتمحى هذه الابعاد والمسافات ، وتبدو لعينى لوحة فنية حافلة بالألوان التى لا يستطيع أبرع مصوّر أن يجمعها فى لوحة . ومن لعمرى يصوّر ألوان الغروب ، أو ألوان الزهر فى الروض أو يثبتها على لوحة بالألفاظ والأوزان أو بالأصبغة والألوان ؟ إن الطبيعة أبرع فى الألوان ، ولـكن الفن البشرى أبرع فى الأصوات. إن الطبيعة ليست موسيقية فنانة ... عندها من الألوان مالا نهاية له ولـكن ليس عندها إلا هدير الموج ، وخرير النهر ، وحفيف الأشجار ، وتغريد البلابل ، وسجع الحمام ، وقصف الرعد ... هذه موسيقاها ، ومن هنا كانت الموسيقى أسمى الفنون لأنها ابتكار وتجديد ، على حين أن الأدب والتصوير تقليد ...

هذه الطبيعة التى أجد فى حماها الحب والعاطفة والجمال ، كلما لجأت إليها فراراً من الناس ، وضيقاً بالحياة ، وما ذهبت مرة إلى بسّيمة[1] وأطللت من (بيت طه) على هذا الوادى الصغير الذى يشبه همسة حلوة من همسات الحب ، أو بيتاً بارعاً من قصيدة الجمال ، إلا نسيت الدنيا كلها وأحسست أنى مع حبيب قد وضع رأسه على فخذى ، ونام ... هـذا الوادى الذى تجرى فيه العين

(١) قرية حلوة صغيرة مختبئة بين الجبال على القرب من العين الخضراء ، وهى اليوم مصطاف الشاميين القريب ، ومتنزهم الفاتن الحبيب

الخضراء لينة الأعطاف ، فاتنة المحاسن ، كأنها فتاة مدللة تخطر بحسنها وفتنتها على سفح الجبل ، تغمز بردى بعينها وتغريه بجمالها وهو يلحقها جرياً فى بطن الوادى ، متحدراً متكسراً كشاب قوى متين العود ، جهير الصوت ، قد اكتملت رجولته كما اكتملت أنوثتها ، وأشجار الحَوْر (حُور كواشف عن ساق) يرقصن فى عرس الفتاة المدللة والفتى القوى ، رقصة الحب ، يتمايلين على العروسين وقد تعانقا بعد قليل ، وضم الفتى عروسه حتى اختفت بين ذراعيه ، وطار بها إلى دمشق ، لتكون جلوتها فى الغوطة جنة الأرض ...

وهذه الجبال الحمراء ، تقوم على الباب ، تحرس الوادى أن يدخله واش أو عذول يفجأ العروسين العاشقين ، وتمنع الشمس الملتهبة أن تدنو منهما أو تعكر عليهما خلوتهما ، فيبقى الوادى جنة تجرى من تحتها الأنهار ، والدنيا من حوله فى جحيم الصيف ...

* * *

غبت فى تأملي وأنا على شاطئ البحر فلم ينبهنى إلا المطر يساقط على وجهى ويدىّ ، فنظرت فإذا السحب قد نسجت فى السماء ليلاً آخر ، وإذا المطر يهبط بشدة ، ثم يستحيل برداً طياشا؛ ثم تهب الريح وتجن الطبيعة جنونها ، فتنطلق تعول وتولول ، وتنتف شعرها ، وتحطم كل مابلغته يدها ، فاجت نفسى واضطربت كهذا البحر الذى يزمجر ويلكم صخور الشاطئ حتى تكل سواعده ، فيستلقى على الرمال فلا تكون إلا لحظة حتى ينزل سوط الرياح على ظهره دراكا ، فيهب فزعاً مرتاعاً ، ويعود إلى ضرب الصخر فى غير ما طائل ، والريح تدير هذه المعركة كلها ، تقفز على رؤوس الجبال ، وتبعثر البرَد يميناً وشمالاً ، وتنثر الرياح ثم تجمعها ثم تعبث بها ...

جنت الطبيعة جنونها ، ولكني لم أخفها ولم تكبر فى عينى ، وإنما ازدريتها وأبغضتها ، ما هذه المخلوقة الضعيفة العاجزة التى لا يدرى بها أحد من سكان هذا الكون الواسع ؟ لقد رأيتها من قمة لبنان نقطة ، فكيف يراها المشترى ؟ وهل يعبأ نجم القطب بثورتها وجنونها ..؟

وانصرفت إلى نفسى أفكر آسفاً ...

إن العام يتصرم وليس حولى صديق أطمئن إليـه ، وأحمل معه أعباء الوداع ، وأشاركه دمعة يذرفها مني على الفقيد الراحل ، وبسمة يمنحها هذا المولود الجديد ...

عرفت أن الصداقة ليس لها وجود ، فنفضت يدى منهم ولجأت إلى الطبيعة أتخذها صديق المخلص وأوليها حبي وقلبي فكانت هذه هى النتيجة . صادقت مجنونة طياشة بكاشة لا تعرف إلا التخريب والتدمير وتجهل ما هو الحق ، وما هو الشعور ؟

أهذا كل ما لى عندك يا صديقتى ؟ ألجأ إليك فى ساعة من أحرج ساعات حياتى قد تركت فيها أهلى وعفت صحبى لألقى بنفسى فى أحضانك ، وأخفى وجهى بين ثديبك ، وأنشق عبيرك الطاهر ، وأغتسل بدموع محبتك وعطفك ، وأدفن آلامي فى صدرك ، فلا تلقينني إلا بهذا الجنون وهذا العويل ؟

كلا ، إنك لا تعرفين الحق ولا الشعور !

* * *

وأين لعمرى مكان الشعور من الطبيعة ؟

أنا أشعر بجمال الربيع ، ولكن هل يشعر الربيع بجمال نفسه ؟ لقد رأت الكونتس دى نواى فى الطبيعة مخلوقاً حياً ذا شعور وعانقت الربيع ، وجالست المساء ، ولكن ما ذا رأى الربيع فى الكونتس دى نواى ؟ هل يفرق الربيع بين الفتاة تقطف الزهرة لتقدمها بفمها إلى حبيبها ، والبقرة تقطف الورقة لتملأ بها معدتها

وأنت أيها الجبل ؟ كم رأيت من الفواجع التى تفتت الأكباد وتذيب القلوب ، فهل شعرت بشىء منها ؟ هل حزنت هل تألمت ؟

أشعرت بالأمس القريب يوم عصفت الأثرة برؤوس نفر من القواد ، فأطفأوا بأفواههم شعلة السلام ، وملأوا العالم ظلاماً ثم نهضوا يبنون من الجماجم مجدهم فى التاريخ ، فلما امتلأت الأرض بالدم وتغطت بالجثث ، وغسلت بالدموع ، وتجلببت بالآلام والأوجاع والثكل واليتم ، ولما كان الأمهات يبكين أبناءهن الذين ضاعت قبورهم كما ضاعت أسماؤهم ، والأطفال يهتفون : بابا . ينادون من ليس يجيب ... كان القواد العظماء يحتفلون بالظفر ... أشعرت بشىء من ذلك يا لبنان ؟ أشعرت بالأرامل والصبايا والأطفال يفتشون عن الخبز .. الخبز الأسود ، فلما لم يجدوه توسدوا رجلك ونظروا إليك صامتين . ثم ماتوا جائعين .. كما مات ألوف وألوف فى سبيل مجد القواد الظافرين !

ألان قلبك الذى قدّ من جلمد الصخر ؟ أذرفت يا لبنان من عيونك الصافية دمعة حنان ؟

وكم رأيت يا لبنان من متع الحب ! وكم أوى إليك العاشقون فاستظلوا بظلك ، وتعانقوا فى حجرك ، وشربوا خمر العيون ، وسكروا بنجوى الحب ، وتحدثوا بوسوسة القُبَل ، ونسوا الدنيا كلها والزمان والطبيعة ، ونسوا أنفسهم حين التقت الشفاه بالشفاه ، وأغمضت العيون لترى القلوب مفاتن هذا العالم المسحور وتستمتع بهذه الدنيا المعطرة الحلوة المغنية دنيا القبلة الكاملة

أهاج ذلك عاطفتك يا لبنان ؟ أحرك قلبك كل ذلك أيها الشاب التياه الذى يخطر بحلله الخضراء الزاهية ويتيه بعطره الخالد ؟

فأين هو مكان الشعور من الطبيعة ؟

أأنت أيها البحر الرقيق السيال أرهف شعوراً وأرق عاطفة ؟ أيحزنك منظر البؤس والشقاء ، وأنت تلتهم الأحياء ، وتخنق البشر ، وتفتح فاك لابتلاعهم ، أأنت ذو الشعور ؟ ...

أين هو الشعور ؟ وأين أجد العاطفة فى الطبيعة ؟ أأبتغيها فى البركان الهائل المحرق ، أم فى العاصفة العاتية المدمِّرة ؟

* * *

وأين هو الحق فى الطبيعة ؟

أنا أرى فى الطبيعة عاصفة تكسر الأغصان ، وتقلع الأشجار؛ وأرى صاعقة تهدم الدور ؛ وأرى سيلاً يجرف المدن ، ويكتسح فى طريقه كل شىء ؛ وأرى البركان الثائر ؛ وأرى الرياح العاتية . كل هذا وجود مادّى للقوة ، فأين هو الوجود المادى للحق ؟

لقد اتضح الأمر ، وخسرت صديقتى الطبيعة الجامدة الظالمة الميّتة ...

فلمن ألجأ ؟

* * *

لمن ألجأ ويحك يا نفس ؟ هذا العام يوشك أن يموت !

فعجزت النفس ولم تجب ، وانطلق العقل يتفلسف ، قال : إن فى الطبيعة لحسًّا وتمييزاً ، ضع ذرة واحدة من الفحم ، وخمساً من الايدروجين يأخذ الفحم أربعاً ويدع الواحدة ، ومهما ضاعفت العدد تبق النسبة ثابتة ، أفليس هذا دليلا على أن الجماد يميز ؟

وضع الذهب بين عشرة معادن وألق عليه الزئبق فانه يعانق الذهب ويدع كل ما عداه ، أفليس فى هذا دليل على أن فى الجماد شعوراً وعاطفة ؟

ولكنى لم أنتبه لما قال العقل ؟

* * *

ونظرت إلى البحر فقلت : ما البحر ؟ ما الطبيعة ؟ أنا لا أرى إلا هذا العالم المادى ؛ ولكن ماذا وراء المادة من عوالم ؟ إن الروح أول محطة فى طريق هذه العوالم ، فهل استطعنا أن نبلغها ؟ إن العقل البشرى يمشى إليها منذ بدأ صناعة التفكير ، ولا يزال فى الطريق لم تبن له معالمها ... إنه تعب وملّ ويئس ... افتح الآن أى كتاب من كتب (علم النفس) إنك لا ترى فى فهرسه اسم الروح ولا النفس ...

وفكرت فى العام الراحل فقلت : ما هو العام ؟ ما وجوده ؟ ما حقيقته ؟ ولم أسمع جواباً فأغمضت عينىّ كما أغمضت قبة الأعظمية عينيها منذ عام ، ولكنى لم أحلم ولم أتذكر ، وإنما لبثت صامتاً محدقاً فى غير شىء كالأبله أو المشدوه ، وتركت عقلى المغرور يتيه وحده فى فضاء اللانهاية ... إنه لا يستطيع أن يعرف شيئاً مما وراء المادة ... كما أن عقل الجنين لا يقدر أن يعلم شيئاً عن هذا العالم ولا يؤمن بوجوده ...

وكنت قد نسيت الطبيعة الجامدة الميتة التى لا شعور فيها ولا عاطفة ، ونسيت هذه المخلوقات التافهة الحقيرة التى يدعونها (الناس) ، ونسيت هذه الذرة التائهة فى رياح الوجود التى اسمها (أنا) ، وتوجهت إلى العظيم الباقى الذى هو وحده الخير المطلق والحق والجمال .. توجهت إلى الله أسأله أن يلبس هذا العام القادم ثوب السعادة ، ويضفى على العام الراحل حلة الغفران . اللهم آمين

« بيروت » على الطنطاوى

بين القاهرة واستنبول

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ٤ —

متاحف طوب قبوسراى

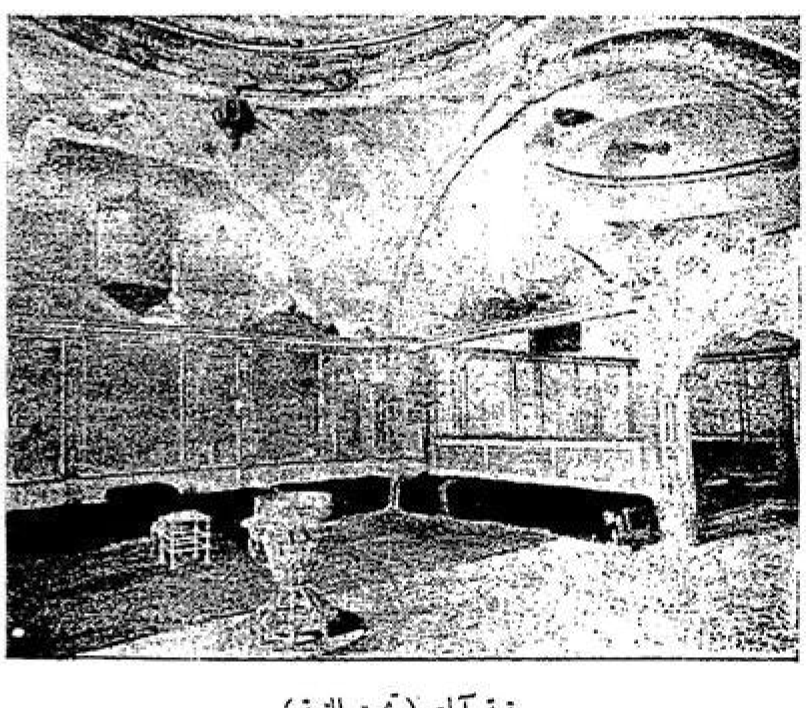
يا أخى صاحب الرسالة :

سلام عليك والله يرعاك

أكتب إليك اليوم بعض ما شهدته أمس فى متاحف قصر طوب قبو الذى كان مباءة السلاطين عصوراً متطاولة . وعسى أن أكتب إليك من بعد طرفاً من تاريخ هذا القصر الأفيح الذى يمتد على إحدى هضاب المدينة من جامع أيا صوفيا إلى رأس السراى (سراى بورنو) على بحر مرمرة :

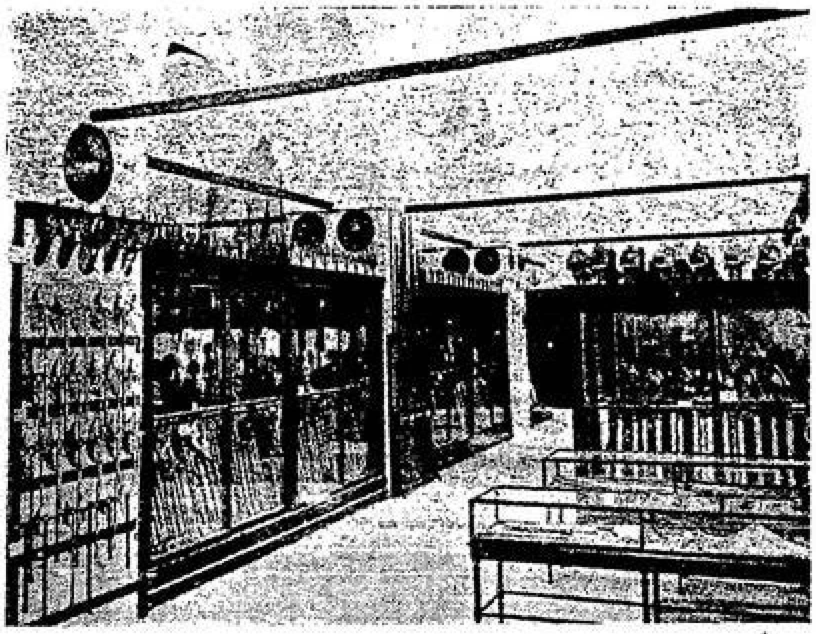
للقصر أسوار بعد أسوار . الأبواب الخارجة تؤدى إلى حدائق واسعة . وقد ذكرت فى رسالتى السابقة أحد هذه الأبواب حين ألجأني المطر إليه

سرنا فى الحديقة حتى انتهينا إلى باب آخر اسمه باب السلام فولجناه إلى حديقة أخرى واسعة تحيط بها أروقة ، ويبدو فيها إلى اليسار بناء ذو قباب ، أمامه رواق جميل . دخلنا فإذا حجرتان تتصل بهما حجرة مغلقة . اسم هذا البناء « قبة آلتى » أى تحت القبة . وكان فى العصور الغابرة مجلس الوزراء . وكان الوزراء من أجل



قبة آلتى (تحت القبة)

هذا يسمون وزراء القبة أو جلاّس القبة (قبة نشين) . فالحجرة التى إلى اليسار فيها أرائك للوزراء تتوسطها أريكة الصدر الأعظم



خزانة السلاح

ويرى فوق مجلس الصدر نافذة عليها شباك من الحديد ناتئ كان السلاطين يشرفون من هذه النافذة ليسمعوا مفاوضة الوزراء أو يروا استقبال الصدور السفراء . وكتبت إلى جانب النافذة كلمة الشهادة وطرتان ، بخط السلطان أحمد الثالث ، والحجرة التى إلى اليمين كانت للكتّاب وفيها طرة للسلطان مصطفى الرابع ، وسجادة يقال إنها نسجت قبل خمسة قرون . وكانت الحجرة المغلقة لاستراحة الكتاب

وبنى هذا البناء فى عهد سليمان القانونى سنة ٩٣٣

ووراء هذه البَنِيَّة برج يعلو فى الهواء ٤٢ متراً عليه منظرة تطّلع على المدينة كلها وكان حوله بناء

وعلى مقربة من « قبة آلتى » حجرة كبيرة هى اليوم خزانة الأسلحة القديمة أسلحة الملوك والأمراء . يرى الداخل أمامه بلطات كثيرة من سلاح مماليك مصر ، وإلى يمينه خزائن زجاجية يطّلع فيها على سيوف لبايزيد وسليمان . وهذا سيف السلطان الغورى وهذا سيف طومان باى . وأما سيف قايتباى هذا فقد طبعه من حديد وجده عند الحجرة النبوية سنة ٨٨١ . وهذان سيفان لمحمد الفاتح ؛ هذا الطويل المحلّى للمحافل ، وهذا القصير العاطل للمعارك

وبينا نتأمل هذه السيوف ونعجب من قدمها ، أرانا المعرض ما هو أبعد فى التاريخ وأجل شأناً ؛ هذا سيف عليه اسم معاوية

وهذه سيوف أموية طويلة مستقيمة ، وهذا سيف لعبد الله بن عمر ، وآخر لكعب الأحبار . وهذا السيف الطويل العريض المذهب قائمه قد كتب عليه : « معاذ بن جبل كاتب رسول الله » بل هذا سيف عثمان بن عفان . سعدت حينا بالذكر ولم أكدرها بتحقيق الأسانيد

وتقدمت قليلا لأرى دروعاً لمماليك مصر : فهذه درع كاملة : قميص وسراويل وعلى الصدر أضلاع من الحديد

ومشيت إلى جانب آخر من الحجرة فرأيت الأقواس والسهام ريشها ونصالها ، والجُعَب ، وهي قِسيّ تركية من نبات القرنين العاشر والثالث عشر هـ . وهذه جعاب (تراكش) محلاة مزركشة ، وهذه درع هنجارية محلاة الصدر بالذهب والفصوص الكريمة ، وهذه درع كتب عليها اسم الشاه عباس الصفوى ، ولا أدرى أي العباسين الأول أم الثاني ؟

وليت شعرى لمن هذه الدرع التي اتخذت جُنة من الآيات والدعوات تقرأ عليها : يا خفيّ الألطاف نجنا مما نخاف . فالله خير حافظاً ، يا مالك الملك ، يا منجى من المهالك ، أنت الباقي وكل شيء هالك . وبيّن أن السجع يقتضى أن يكون : يا مالك الممالك الخ ولعله تحريف الكاتب أو الطابع

سنتقدم ونمر إلى خفتانات من الجلد أو النسيج الصفيق ومغافر من الجلد والحديد . بل هذه مغافر للخيل ؛ والفرس صديق الفارس في المآزق يحتاط له كما يحتاط لنفسه . وكانت الخيل تلبس المغافر على رؤوسها والتجافيف على أبدانها . وفى شعر أبى الطيب :

حواليه بحر للتجافيف مائج يسير به طود من الخيل أيهم

ثم ترى قوائم أعلام يعلم الله ماشهدت من ظفر وهزيمة ، ثم بنادق من عصور مختلفة فيها المحلى بالصدف الذي يضرب بالزند والصوان ، وفيها بنادق القلاع الثقيلة ، وضروب أخرى كثيرة

— ٢ —

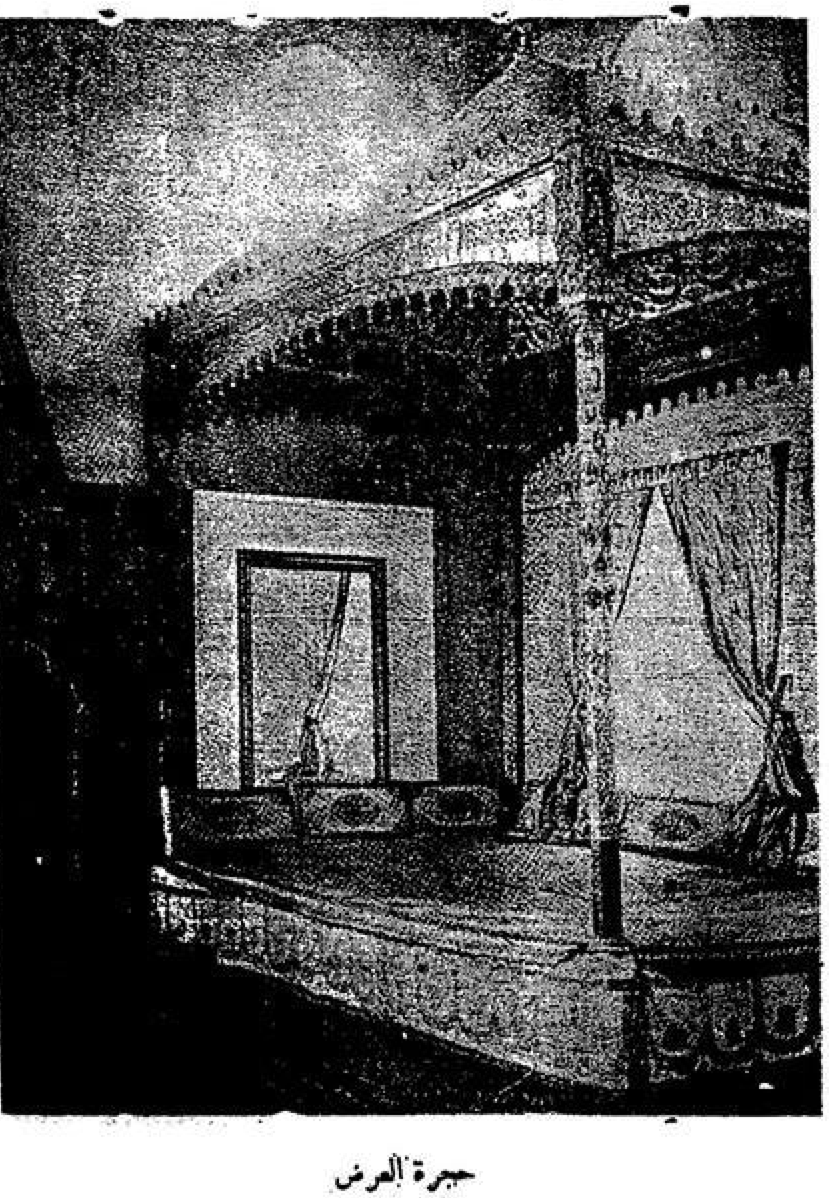
تركنا خزانة السلاح وسرنا حتى اجتزنا الباب الثالث إلى رحبة واسعة ، ويفضى الباب إلى رواق مستطيل مع الجدار ، وعلى الباب من الداخل كتابة وثلاثة ألواح مستديرة فيها أسماء السلاطين وتواريخ ولايتهم ووفاتهم من عهد عثمان إلى محمد السادس وهي تشغل لوحين ونصف الثالث ، وبقى الفراغ فيه ناطقاً بانتهاء الدولة

وأمام الباب حجرة يتقدمها رواق . وهي حجرة العرض (عرض أوده سى) وكانت مجلس السلطان لمقابلة السفراء ، ورجال الدولة أيام الأعياد وفيها سرير منجد تعلوه قبة من الخشب المصنّع المزين وكان أثاث الحجرة وزينتها من آيات الإتقان والبذخ ولكنها احترقت سنة ١٢٧٣ وبقى بعض آثارها

وفى جانب الحجرة نافورة يقال إنها كانت تفتح حين يُسر السلطان حديثه حتى لا يسمع الذى فى الخارج

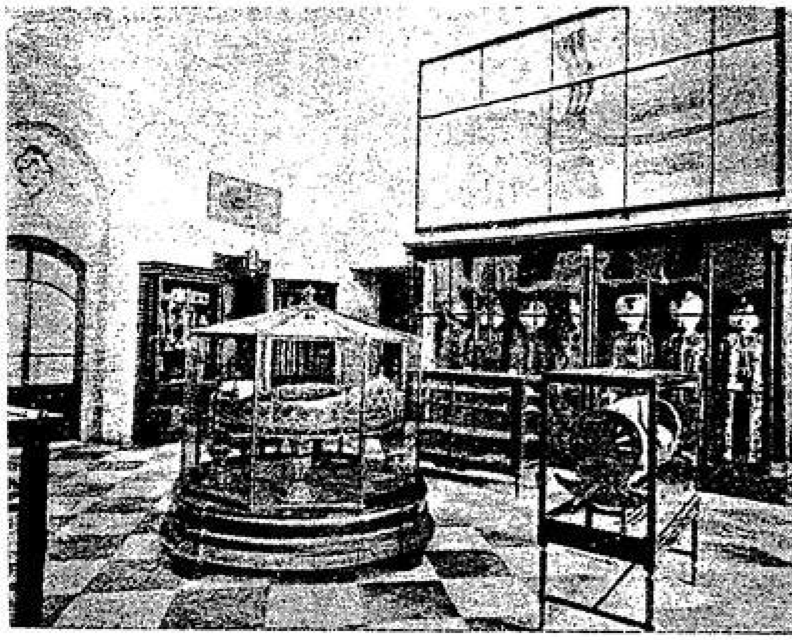
وفي الرواق الذى أمام الحجرة حجر من المرمر يقال إن قتلة السلطان سليم الثالث وضعوا جثته عليه وأروها للصدر علمدار مصطفى باشا

وتقدمنا قملنا ذات اليمين إلى (الخزينة) وفيها من نفائس التاريخ وأعلاق الملوك ما يكل الطرف دون تأمله ؛ الحجرة الأولى والثانية بهما أدوات الطعام والقهوة من الصينى الجميل فى ندرة من الألوان ، وفتنة من بدائع النقش ، صحون وطسوت وأباريق وفناجين ، وأدوات من البللور والنحاس المذهب ، وخوانات من الفضة ومواقد الخ الخ



حجرة العرض

هذه المرائى اللألاءة تبهر العين حيثما توجهت فتشغل الناظر عن التفكير فيما وراءها من التاريخ . قلت ماذا أرى وماذا أدع ؟ هذه للعابر متعة دقائق ، وللباحث درس أشهر ، وللمفكر عبرة الدهر



حجرة الملابس

ثم حجرة الملابس ، ياله منظراً مهيباً ومقاماً هائلا ! صف ينتظم السلاطين من الفاتح إلى عبد المجيد . ها أنت ذا فى حضرة السلاطين الذين رجفت بهم الأرض قروناً وامتلأت صفحات التاريخ أجيالا . هوّن عليك لا تُرَع . ما هى إلا ألبسة تحملها أعواد . أجل ! هذه الجبة ، وهذه العمامة الكبيرة ، وهذه الشارة (سرغوج) التى تعلو العمامة محلاة بالماس ، وهذا الخنجر الذهب الذى تثقله هذه الزمردة الكبيرة — أجل هذا لباس الفاتح وزينته وسلاحه ، ولكن لا تُرَع إن هو إلا لباس على أعواد . إضحك إن شئت ، وتحدث كما تشاء ، ولا تأخذك هيبة الفاتح وصولته ، وإن شئت فقف خاشعاً مطرقاً مفكراً فانها ذكرى واقعة وتاريخ ماثل ، فاذا أخذتك سورة الذكرى واستشعرت رهبة الملك فارفع رأسك وانظر فليس أمامك الفاتح ، ولكن جبته وقفطانه وعمامته وخنجره

وانظر بجانبه ملابس بايزيد الصوفى : عقد من الزمرد حول حلقة من الجواهر يزين هذه العمامة ، وعلى مقبض الخنجر ثلاث قطع من الفيروزج زرقاء صافية . وتقدمت فوقفت أمام سليم وسليمان ! ولست أبالى حضرة سليم وسليمان ، فقد ذهب الدهر بسليم وسطواته ، وذهبت الريح بملك سليمان

وانظر إلى من بعد سليم وسليمان : هذان سليمان الثانى ومحمد الرابع على رأسيهما عمارتان تخالفان ما رأيت قبلا ، عمارة حمراء عليها لفافة صغيرة ، وشارة عظيمة جداً ؛ ثم انظر العمائم الطويلة المضلعة على رأس مصطفى الثانى ومن بعده

وهذا محمود الثانى الذى بذل فى الإصلاح جهده وبطش بالانكشارية بطشته فى زى أوربى على رأسه طربوش عليه قطيفة سوداء وشارة . ثم عبد المجيد على رأسه الطربوش والشارة فقط . وهكذا يسير التاريخ متمهلا من أبهة الماضى واستقلاله وجلاله إلى يسر الحاضر وتقليده وجماله

وفى وسط الحجرة صوالج لعبت بالأمور حتى لعبت بها الأقدار . وليت شعرى ما خطبُ هذا المهد السلطانى الصغير ؟ بل أى طفل من بنى السلاطين ترجّح فيه ، وأى يد من أيدي الأميرات أو الخادمات هزته ؟ وماذا كان حظ صاحبه من هذا المهد إلى ذاك اللحد ؟

وأما هذا العرش العظيم المسبغ الجوانب ذو القوائم الأربع فيقال إنه عرش الشاه اسماعيل ...

وبعد فياصديقى الزيات ! أخشى أن يطول الحديث فليقف الكلام عند عرش اسماعيل وموعدنا الرسالة القبلة إن شاء الله

والسلام عليكم ورحمة الله عبد الوهاب عزام

أناشيد صوفية

جيتـــانجالي

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٥٧ —

انتظمْ في نشيدي الأخير كل فنون الطرب : الطرب الذي يكسو وجهه بخضرة النبات المتراكم ؛ الطرب الذي يبعث التوأمين — الموت والحياة — في أنحاء الأرض يطوّفان معاً ؛ الطرب الذي يهبط جارفاً في ثنايا عاصفة فينفث في الحياة روح اللذة والمرح ، الطرب الذي يستقر في هدوء وعبراته على زهرة اللوتس الحمراء وهي تتفتح ؛ الطرب الذي ينثر كل ما يملك على الثرى ثم هو لا يستطيع حديثاً

— ٥٨ —

نعم ، أنا أوقن بأن هذا ليس شيئاً سوى حبك ، يا حبيب القلب ! هذا الشعاع الذهبي المتألق على أوراق الشجر ، هذه السحب المتكاثفة وهي تسبح في الفضاء ، هذا النسيم العليل وهو يهب نديًّا يداعب وجهي

لقد ملأ نور الصباح عينيّ ، وهو رسالتك إلى قلبي ، إن وجهك يطل عليّ من علٍ ، وعينيك تحدقان في ، وقلبي يلمس قدميك

— ٥٩ —

على شاطىء بحر الكون اللانهائي يتلاقى الأطفال ، ومن فوقهم السماء تمتد في سكون إلى اللانهاية ، وبازائهم الأمواج المضطربة تزمجر ، وعلى شاطىء بحر الكون اللانهائي يتلاقى الأطفال في هياج ومرح

وهم يتخذون من الرمال قصوراً ، ومن الأصداف الفارغة لُعباً ؛ ويشيدون من الأوراق الذابلة قوارب يدفعون بها على صفحة الماء الغَمْر في لذة . إن الأطفال يجدون السلوة على شاطىء بحر الكون

إنهم لا يستطيعون السباحة ولا يعرفون كيف تلقى الشباك . إن الغواص يندفع يفتش عن اللآلىء ، والتاجر ينطلق على الفلك يجمعها ، ولكن الأطفال يجمعون الحصى وينثرونه لأنهم لا ينقبون عن الكنوز الخفية ، فهم لا يعرفون كيف تلقى الشباك

البحر يموج كأنه يقهقه ؛ ورمال الشاطىء الصفراء تشف عن بسمة رقيقة ، والأمواج إلى جانب الأطفال تردد أغاني لا معنى لها كأنها صوت أم تهدهد طفلها وهو في مهده . إن البحر يداعب الأطفال ، ورمال الشاطىء الصفراء تشف عن بسمة رقيقة

على شاطىء بحر الكون اللانهائي ، يتلاقى الأطفال والعاصفة تزمجر في الفضاء ، والسفن تتحطم في مجاهل الأمواه . الموت هناك ، وهنا الأطفال يلعبون . على شاطىء بحر الكون اللانهائي يتلاقى الأطفال لقاءهم العظيم

— ٦٠ —

أفيستطيع إنسان أن يعرف من أين يهبط النوم الذي يداعب جفني الطفل ؟ نعم ، إن الاشاعة تدوي أنه يتخذ له مسكناً في القرية الجميلة التي بين تفاريق الغابة الظلماء لا ينيرها سوى الشعاع الضئيل المنبعث من الفراش المضيء ، هناك تتدلى زهرتان فيهما الحياء والفتنة تنفثان ريح النوم فينطلق ليقبل عيني الطفل

أفيستطيع إنسان أن يعرف من أين تهب البسمة الساحرة التي ترتسم على شفتي الطفل وقد غمره النوم ؟ نعم ، إن الاشاعة تدوي أن شعاعاً رفيقاً نديًّا انبعث من القمر وهو هلال فلمس حافة سحابة من سحب الخريف وهي تكاد تتلاشى ، فولدت — أول ما ولدت — الابتسامة في أحلام الصباح الندي ... هذه هي الابتسامة الساحرة التي ترتسم على شفتي الطفل حين يغمره النوم

أفيستطيع إنسان أن يعرف أين كان يتوارى النشاط الحلو الرقيق الذي يضطرم في أطراف الطفل ؟ نعم ، حين كانت الأم فتاة ألقت بقلبها في هدوء بين خفايا الحب ... الحب ، إنه هو النشاط الحلو الرقيق الذي يضطرم في أطراف الطفل

— ٦١ —

حين أحمل إليك — يا بنيّ — اللُعب الجميلة الملونة أستطيع أن أعرف لماذا ارتسمت هذه الألوان على السحب ، على الماء ، ولماذا صبغت الأزهار اليانعة بألوان جذابة .. حين أحمل إليك — يا بنى — اللُعب الجميلة الملونة ، حين أغنى أمامك لترقص على نغم أغانيّ ؛ أعرف حقاً لماذا تنبعث الموسيقى من حفيف أوراق الشجر ، ولماذا يُرسل الموج ألحانه في قلب الأرض الصامتة .. حين أغني أمامك لترقص على نغم أغانيّ

حين أقدم لك الحلوى فتتقبلها في شغف ؛ أعرف أنا لماذا امتلأ كأس الزهرة رحيقاً ، ولماذا انضمت الفاكهة على عصير حلو ... حين أقدم لك الحلوى فتتقبلها في شغف

في العدد الماضي سقط سهواً نشيد (٥٣) وأوله : ما أجمل سوارك

حين أقبل جبينك — يا عزيزى لتبسم ؛ أستطيع أن ألمس اللذة فى شعاع الصباح المنير ، وأن أحس النشوة التى تنفثها فى نسمات الصيف ... حين أقبل جبينك لتبسم

— ٦٢ —

أنت عرّفت علىّ أصدقاء لا أعرفهم ، وحبوتنى بمكان فى كل دار وليس لى واحدة منها ، وأنت كشفت لى عن كل مبهم ، ومننت علىّ برفيق فى الغربة

إن قلبى ليضطرب حين أهجر مأواى الذي سكنت إليه . لقد نسيت أن القديم يتحدّر إلى الحديث فيعيش معه ، وأنك أنت أيضاً

بين صراع الحياة والموت ، على هذه الأرض أو على سواها ، تقودني أنت أنىّ شئت ... وأنت رفيقى الأوحد فى هذه الحياة الأبدية ، رفيقى الذي تجذب إليك قلبى بنفثات من الطرب المجهول

إن الذى يعرفك لا يستشعر الغربة فى هذا العالم ولا تسد فى وجهه الأبواب . أوه ، تقبل صلواتى كى لا أفقد لذة لمساتك — أيها الفرد — فى سبيل المجموع

— ٦٣ —

عند منحدر النهر الموحش ، وبين الحشائش النامية سألتها « يا سيدتى ، إلى أين تذهبين وأنت تسترين سراجك بين طيات ملاءتك ؟ إن داري مظلمة خاوية فأعيريني ضوءك ! » فأرسلت من عينيها السوداوين نظرات نفاذة اخترقت أستار الظلام ، واستقرت على حيناً ثم قالت « لقد جئت إلى النهر لأضع مصباحى على صفحة الماء حين ينطفئ مصباح النهار » فوقفت وحيداً بين الحشائش أرقب نور مصباحها الخافت وهو يتناثر بدداً على صفحة الماء

وفى صمت الظلام سألتها : « يا سيدتى ، لقد همد مصباحك فالي أين تنطلقين ومعك سراجك ؟ إن دارى مظلمة خاوية فأعيريني ضوءك ! » فأرسلت من عينيها السوداوين نظرات نفاذة استقرت علىّ حيناً ، ثم قالت : « لقد جئت لأقدم مصباحى إلى السموات » فوقفت أرقب الضوء الخافت وهو يضطرب — دون جدوى — فى الفضاء

وفى أعماق الليلة الظلماء سألتها : « يا سيدتى ، لماذا تضمين مصباحك إليك ؟ إن دارى مظلمة خاوية فأعيرني ضوءك ! » فتلبثت قليلاً تفكر ثم نظرت إلي وقالت : « لقد جئت بمصباحى لأنضم إلى الحفل » فوقفت أرقب الضوء الخافت وهو يغوص وسط المصابيح

كامل محمود حبيب

من الشعر الانجليزى

القبرة

للشاعر العبقرى الانجليزى « شيللى »

للأستاذ خليل هنداوى

« تعد هذه القطعة أكمل ما جاء فى الشعر الانجليزى وقد نظمها صاحبها فى إيطاليا ، وهو فى الثامنة والعشرين من عمره . وقد قالت امرأته : إنه كان فى أحد أيام الصيف يتجول فى الغابات وقد سمع صوت قبرة ، فأوحت إليه قصيدة من أسمى قصائده » (خ . ه)

سلاماً عليك أيتها الروح المرحة !
أنت لستِ بطائر
يا من تسكبين من السماء ومن الطباق المجاورة
ألحاناً مبتكرة — علينا — يطفح قلبك بها
تطيرين إلى الأعلى ، دائماً إلى الأعلى
وتنقذفين من الأرض كسحابة من نار ،
وتطيرين فوق الأعماق الزرقاء
شادية وأنت محلقة
محلقة وأنت شادية لا تنتهين .
وفى لمعات الشمس الغاربة التى يسطع لها السحاب
تسبحين وتركضين كفرح طليق متوثب بدأ سباقه ؛
صفرة المساء الأرجوانى تنتشر حولك
وكنجمة غمرها نور النهار الواضح تصيحين متوارية ،
ولكنى لا أزال أسمع هتافك الطروب .
الفضاء والأرض مفعمان بصوتك
كعهدهما عند ما يرسل القمر أشعته من وراء سحابة منعزلة
فى الليلة الصافية
والسماء يفيض على حواشيها شعاعه

***

خرير الينابيع بين الأعشاب اللامعة

والأزهار النائمة التى ينبهها المطر
وكل ما أطرب وأفرح وسر ألا يفوق لحنك منه شيء
علمنا أيها الطائر !
أى جمال فى أفكارك !
فإنى لم أسمع مقطوعة فى حب أو خمر تفجر فى النفس كمثل ما يفجره لحنك من الغبطة الإلهية
إن ألحان العرس وأغانى النصر إذا قيست إلى الحانك لا تبدو إلا ضجة فارغة أو فراغاً لا معنى له .
لأية غايات تترامى ينابيع صيحاتك الفرحة ؟
أية حقول وأية أمواج أو جبال ؟
وأية مشاهد فى الأرض أو فى السماء ؟
وأى حب للقريب ؟ وأى جهل للشقاء ؟
إن العناء لا يسكن مع فرحك الظاهر القوى ؟
وخيال الضجر لا يَمسُّك أبداً
إنك تحبين ولكنك لم تعرفي أبداً شبح الحب الكئيب
سواء كنت نائمة أو يقظى ، فإن لك أفكاراً على الموت أثبت حقيقة مما نحلم نحن به
وإلا فكيف تسبح أنغامك كالأمواج البراقة ؟
إننا ننظر أمامنا ووراءنا ، وانا لنشحب بعد الفناء ؛
وضحكتنا الأكثر صفاء هى مشوبة ببعض الألم ؛
وأجمل أغانينا الأغانى التى ترجع لنا أفكارنا الكئيبة ،
على أننا لو قدرنا أن نجتنب الخوف والبغض والكبرياء
ولو ولدنا لكى لا نبكى أبداً ،
فانى لا أدرى كيف لا يستطيع فرحك أن يستعطف أنفسنا !
إن فنك الذى يزدرى الأرض
يكون — عند الشاعر — أفضل من أوتار الألحان الرائعة
ومن كل الكنوز التي تصونها الكتب .
آه لو علمتنى — أيتها القبرة — نصف فرحك الذى يعرفه قلبك
أو صوتاً مطرباً يفيض من شفتى يسمعه منى الناس كما أسمع الآن

قبرة شيللى

للشاعر الانجليزى توماس هاردى

كتبت فى إيطاليا حيث كتب شيللى مقطوعته الشهيرة «القبرة»

هنا بعض شئ — حول هذا المكان — يستريح ملاصقاً أميناً للأرض الناسية العمياء
بعض شئ ترك قلب الشاعر فياضاً
قبضة مجهولة من تراب لا يُرى
تراب القبرة التى سمعها شيللى وخلدها لكل الأزمان
على أنها لم تعش إلا كمثل عصفور من العصافير
ولم تعلم أنها أصبحت مخلدة
قضت حياتها العذبة ثم سقطت يوماً كتلة من ريش وعظام .
أما سؤالك كيف هلكت وهى ترجع أنشودة الوداع
وأين استقر رمادها
فهذا أمر مجهول .
ربما تستريح تحت عينى فى التراب
وربما تخفق بين أوراق الرياحين
وربما تنام فى ظاهر لون عنقود يتلون فى منحدر التلال بعيداً عن البحر
ألا فتشن عنها أيتها الجنيات !
ألا فتشن عن هذه القبضة الصغيرة من الرماد من غير ثمن
وخذن آنية موشاة بالفضة مغشاة بالذهب ، مرصعة باللؤلؤ
إننا سنضعها فيها بأمان ، ونسلمها إلى أبد الزمان
لأنها بلغت ذروة الذهول السامى فى التفكير والألحان

خليل هنداوى

فلسفة التربيـــة

كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٥ —

الديمقراطية والحياة المثلى

« أية قطعة من الخليقة هو الانسان ؟ كم هو عظيم فى عقله وليس بمحدود فى ملكاته ؟ وكم هو رائع وسريع في صورته وحركته ؟ وكم هو كالملاك فى عمله وكالإله فى فهمه ؟ إنه جمال العالم وتاج الحيوان !! » شكسبير — هملت

« على التربية اليوم أن تصلح الاخطاء التى فشلت السياسة فى إصلاحها ، وأن تخدم قضية الديموقراطية أفضل خدمة »
Bode, « Modern Ed. Theories »

عرضت عليك فى المقال السابق ألواناً من أغراض التربية وصوراً ، وأشرت إلى دقة الموضوع وصعوبته ، ثم تركته مفتوحاً لرجال التربية فى الشرق كيما يدلى كل منهم فيه برأيه الخاص ؛ وأعود اليوم فأجول بك فى « الحيـاة المثلى » ما دمنا نريد من التربية أن تعدّنا لمثل تلك الحياة ...

ولكن ترى ماذا عسى أن تكون هـذه « الحياة المثلى » لذلك « الإنسان العظيم » الذى تصوره شكسبير ؟؟ وأى علم من العلوم ، أو فن من الفنون ، يصلح للخوض فى ذلك الموضوع غير الفلسفة والشعر ؟؟ ومن أين تستمد التربية هـذه الحياة إذا هى لم تستمدها من الفلسفة والشعر ؟؟

الحق أن الناس قد اختلفوا وما زالوا يختلفون فى تصورهم للحياة ، وأن الفلاسفة والشعراء قد تباينوا تبايناً عظيما فيما قد رسموه لها من « مثل عليا » دافعوا عنها ودعوا الناس إليها ! وأنت ترى بعد ذلك أن الموضوع خطير كل الخطورة ما دامت حياتنا هنا واحدة لا عودة لها ولا تكرار !

إذن فيم تقوم « الحياة المثلى » ؟ أفى الزراعة وحكمة الأقدمين كما يقول « غاندى » ؟ أم فى السرور كما يزعم « ماتيو أرنولد » ؟ أم فى العمل بالتئام مع إرادة حاكم الكون كما يردد « زينو » ؟ أم فى النشاط الفكرى الدائر حول أسمى موضوعات الفكر — وهو الله — كما يؤكد « أرسطو » ؟ أم فى إشباع الحاجات الطبيعية دون إفراط أو تفريط كما يطالب « سبنسر » ؟ أم فى التأمل فى الجمال المطلق كما يسمو « أفلاطون » ؟ أم فى حيـاة الفضيلة كما نصح الرواقيون ؟ ، أم فى الحياة الطبيعية البعيدة عن العلم والفن كما صرح « روسو » ؟ أم فى آداء الواجب فحسب كما ألح « كانت » ؟

تلك جميعاً تصورات « للحياة السعيدة » فيها من التشابه والاختلاف الشئ الكثير . ولقد حاول « ديوى » فى نزعتـه الاجتماعية الجارفة أن يدلى برأيه فى الموضوع فقال : « إن السعيد من الناس هو من ينظر إلى قوى نفسه من ناحيتها الاجتماعية فلا يدبر أمراً أو يرغب فيه إلا بالإشارة إلى أثره فى الجماعة التى هو جزء منها . ذلك أن سعادته إنما تقوم فى تنمية « النشاط الاجتماعى » دون النظر إلى ماعسى أن يكون فى ذلك من لذة أو ألم [١] » ومعنى ذلك أن الإنسان — مهما سما في الفكر أو اغتنى بالمادة — لايستطيع أن يتذوق السعادة الحقة إلا فى ظل الجماعة التى هو جزء منها ، والتى لها عليه واسع الفضل وعظيم النعمة ؛ وليست هـذه النزعة فى الواقع إلا صـدى لتيار « الديمقراطية » الذى أغرق بأمواجه المدوية الجارفة خرافة « التفريق بين الناس » ، وحمل « الشعب » على ظهره إلى فردوس الكرامة والرقى !

وماذا عسى أن تكون هذه الديمقراطية ؟ وماذا عسى أن تكون تطبيقاتها فى التربية ؟

أما هى فيعرفها « ديوى » بأنها « حكم الشعب لأجل الشعب وبالشعب [٢] » ! ويفسرها بأنها اشتراك الأفراد فى المصالح العامة بحرية تامة وفى دائرة الخير العام [٣] ؛ هذا بينا يعرّفها «باستور» « بأنها النظام الذى يمكن الجميع من تحقيق أقصى مجهوداتهم »

وأما تطبيقاتها فى التربية وفى غير التربية فخطيرة وعظيمة بحيث لايكاد يتسع لها مثل هذا البحث ... وحسبك أن تعلم

(١) أنظر A Source Book of The Philos. of Ed. by Kilpatrick فصل « غاية التربية »
(٢) أنظر كتابه The Schools of To morrow
(٣) وكتاب Demochacy and Education

آثارها فى نظام الحكومة [١] ، ونظام العمل والعمال ، ونظام التعليم الشعبى ، بل نظام العالم كله كما يتصوره السلميون العالميون لتعلم حقيقة ما أقول :

وهاهوذا « وولف يشترط فى أعمال الفرد الديمقراطى أن « تكون شائقة جذابة وإلا دفعت به إلى الفساد الخلق » !

وهاهوذا « هوبهوس » يحرم الحرب فى الديمقراطية لأنه يراها تقتل « الحرية » ، وهذه — كما تعلم — أساس الديمقراطية

بل ها هوذا الأستاذ Bode يرى مع « ديوى » وغيره أن الديمقراطية يجب أن تسود التربية فى جميع مراحلها وتطبيقاتها ويرجو من التربية ذاتها أن تكون خير مساعد فى نشرها كيما تستطيع غداً أن تصلح تلك « الأخطاء الهائلة » التى رزح العالم تحت أثقالها سنين طوالاً ، وكان الجاني عليه فيها سياسة عمياء ، ونزعة حمقاء ، وجهل مطبق !

تطبيقات الديمقراطية على التربية

وما دمنا هنا إزاء التربية فلا بد من أن نجعلها صالحة لخلق ذلك المجتمع الديمقراطي المنشود — لابد من أن نجعلها تعد الفرد لا لملء مركز خاص كما كان الحال فى « خرافة الطبقات » ، بل لخلق مركز مناسب يعمل فيه كوحدة مرنة متسقة محترمة قادرة على مواجهة التغير المنتظر فى كل وقت ، وغير خاضعة لسياسة تعسفية مفروضة !

ولم ذلك ؟ ألم تفشل مدارسنا الراهنة فى تعليمنا أن الحياة مغامرة فيها من المفاجآت القاسية بقدر ما فيها من المداعبات الهينة ؟ ألم تخرج لنا أولئك المتكبرين المتعجرفين الذين لا يصلحون لشيء غير ملء المقاعد وتسويد الأوراق ، والذين تقوم بينهم وبين الشعب هوة من الانسانية الكسيرة ، والكرامة المهيضة ، والشرف المذبوح ؟

نريد إذن عالماً أحسن ؟ ! عالماً لاتثور فيه الحرب ، ولاتطغى الآلة ، ولا يذبح فيه « العلم المادى » الايمان فيؤخر السمو الخلق ويعوقه عن اللحاق بالتقدم العلمي ! ! عالماً لا يدخل عليه التغير الحتمى فيغرق أبناءه فى جحيم من الفوضى كما نرى فى كل مرحلة انتقال تجتازها أمة من الأمم أو مجتمع من المجتمعات ! !

وسبيل ذلك كله هو تحويل « المدرسة والتدريس » إلى « شيء آخر » تنمو فيه شخصية الطفل ، وتقوى على مواجهة الظروف ، وتكون مرنة لا تأسرها العادات ، وذات فراغ كاف برىء يكسبها حكمة العلم ورقة الفن ويسمو بها فوق الآلات ! ! ذلك إلى عمل « مفهوم » وشائق وجذاب ، وإلى ثقافة راقية تفهم صاحبها مركزه فى الكون ووظيفته فى الجماعة التى يجب أيضاً أن تكون مفهومة لديه ! ! ثقافة خالية من « لصوص التاريخ وسفاكيه » كما يقول هازئاً « برناردشو » وبذلك يكون لدينا عضواً فعّالاً ، متعاوناً مستقلاً ، عادلاً ، يحترم المعارضين ، ويشك ، وينقد ، ويجازف ، ويسمو في إنسانيته فوق المجاوات ، عضواً يرى السلاح حقارة كما يقول « برتراند رسل » ، ويمقت البدع الدينية ومروجيها من ذوى الطيالس واللحى ، عضواً كله إقدام وتفاؤل وأمل ، لاخوف وتردد ويأس ...

وستسأل بعد ذلك عن الأساس الفلسفى الديمقراطى ؟ ! وسأجيبك أن الله الذى خلق الإنسان « على مثله وصورته » ما كان ليرضى له ذلاً أو استعباداً ، أو أى مظهر آخر من مظاهر الاستبداد الذى يخمد إنسانيته ويعوقها عن كمالها المنشود

أوَ ليس « الإنسان » عظيماً فى عقله ، وغير محدود فى ملكاته ، ورائعاً فى صورته ، وسريعاً فى حركته ؟ وكالملاك فى عمله ، وكالإله فى فهمه ؟ لأنه جمال العالم وتاج الحيوان ؟

إذن فما لنا نأبى عليه إنسانيته الرفيعة هذه ، ونلقى به فى هوة فيها ما شئت وما لم تشأ من حيوان وشيطان ؟

« يتبع » **محمد حسن ظاظا**

مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

(١) ومهما يكن لها فى ذلك النظام من عيوب فانا نرى مع الأستاذ جوستاف لوبون أنها خير نظام وجد حتى الآن .. أنظر كتابه روح الاجتماع

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٢٠ —

تحت راية القرآن

الجديد والقديم ...! هنا ميدان الخصومة بين الرافعي وأدباء عصره ؛ فمنذ نحَـله أديبٌ منهم زعامة المذهب القديم في مقال كتبه لمجلة الهلال سنة ١٩٢٣ ، نشط الرافعي ليجاهد هذه الدعوة التي يدعون إليها بتقسيم الأدب إلى قديم وجديد ؛ إذ لم تكن هذه الدعوة عنده إلا وسيلة إلى النَّيل من العربية في أرفع أساليبها ، وسبيلاً إلى الطعن في القرآن وإعجاز القرآن ، وباباً إلى الزراية بتراث الأدباء العرب منذ كان للعرب شعر وبيان . ومن ذلك اليوم نصب الرافعي نفسه ووقف قلمه على تفنيد دعوى التجديد ؛ فجعل همَّـه من بعدُ أن يتتبع آثار الأدباء الذين ينتسبون إلى الجديد ليردَّ عليهم ويكشف عن باطلهم . وما كان يرى في عمله ذلك إلا أنه جهاد لله تحت راية القرآن ؛ فمن ذلك كان اسم كتابه الذي جمع به كل ما كتب في المعركة بين الجديد والقديم ، من سنة ١٩٠٨ — ١٩٢٦

هو كتاب لم ينشئه ليكون كتاباً ، ولكنها مقالات تفرقت أسبابها واجتمعت إلى هدف واحد ، وكانت مزقاً مبعثرة في عديد من الصحف والمجلات فجمعها بين دفتي كتاب ، فاجتمع بها رأي الرافعي في القديم والجديد على اختلاف أسبابه ودواعيه وما كُتب له ؛ على أنك لا تكاد تبلغ من صفحات هذا الكتاب إلى الصفحة المائة من أربعمائة حتى يخلو الميدان من كل أنصار الجديد إلا رجلاً واحداً هو الدكتور طه حسين بك ، ويتوجه إليه الخطاب والرد في كل ما بقي من صفحات الكتاب ؛ فكأنما أنشأه الرافعي وجمعه كتاباً للرد عليه هو وحده ، وكأنه هو وحده الذي يدعو إلى الجديد وينتصر له ويحمل رايته ؛ فإذا أوشكت أن تفرغ من الكتاب فرغت من الرافعي ومن رأيه ومن حديثه ، لتقرأ جلسة من جلسات البرلمان يرأسها سعد ويتداول الحديث فيها طائفة من النواب عن طه حسين ورأى طه حسين في الأدب وفي الدين وفي القرآن ، ويحتدم فيها الجدل بين حكومة عدلي وبرلمان سعد في شأن هو إلى الأدب أدنى منه إلى السياسة ؛ وإنها لجلسة ممتعة خليقة بأن تكون في موضعها من كتب الأدب وتاريخ النقد الأدبي

وليس الكتاب على استواء واحد في أسلوبه ؛ ففي المقالات الأولى منه تقرأ رأي الرافعي هادئاً متزناً فيه وقار العلماء وحكمة أهل الرأي ورحابة صدر الناقد البريء ؛ فإذا وصلت من الكتاب إلى قدرٍ ما ، رأيت أسلوباً وبياناً غير الذي كنت ترى ، وطالعتْك من صفحات الكتاب صورة جَـهْمةٌ للرافعي الثائر المغيظ المحنق ، جاحظ العينين كأنما يطالب بدم مطلول ، مُزْبِد الشدقين كالجمل الهائج ، منتفخ الأنف كأنما يشم ريح الدم ، سريع الوِثاب كأن خصماً تراءى له بعد ما دار عليه طويلاً فهو يخشى أن يفر ، وهو هنا يعني طه حسين وحده !

وليس عجيباً أن ترى هذين اللونين من النقد لأديب واحد بين دفتي كتاب ؛ فإن هذه المقالات وإن صوَّبتْ إلى هدف واحد قد اختلفت دواعيها وأسبابها ومن كُتبت له ؛ وقد كان بينها في التاريخ الزمني سنوات وسنوات ، والكاتب المتجدد لا يثبت على لون واحد من عام إلى عام

على أنك تقرأ للرافعي من هذا الكتاب رأيه في طريقة تدريس الأدب بالجامعة غداة تأليفها سنة ١٩٠٨ ، فتراه يدعو إلى مذهب جديد في تدريس الأدب ، وتقرأ له — من الكتاب نفسه — ردَّه في سنة ١٩٢٦ على طه في طريقته الجديدة لتدريس الأدب ، فتراه ينكر عليه هذا الجديد ؛ فتعلم من هذا وذاك أن الرافعي لم يكن يعني بحملته أن يناهض كل جديد ، بل كانت غايته أن يردَّ إلى الأفواه كل لسان يحاول بدعوى الجديد أن يتنقص من القديم ليخلص من ذلك إلى النيل من لغة القرآن ولغة الحديث ومن تراث أدباء العربية الأولين

ليس يعنيني هنا أن ألخص رأي الرافعي في الجديد والقديم ، فمراجع البحث عن رأيه في ذلك واسعة مستفيضة ، إنما قصدت إلى تعريف هذا الكتاب إلى قراء العربية في عرض موجز ووصف كاشف ؛ أما ما دون ذلك فله من شاء من أهل الرأي والنظر ، وله مني غير هذا المجال من الحديث

* * *

والآن سأتجاوز الفصول الأولى من الكتاب لأتحدث عن أسلوبه في سائره ؛ ويبدأ هذا الجزء من صفحة ١٠٤ — ٤٠٥ وفيه تفصيل ما كان بين الرافعي وطه حسين منذ بدأت الخصومة بينهما حول « رسائل الأحزان » إلى أن انتهت عند مجلس النواب حول كتاب « في الشعر الجاهلي » ، وهو فصول عدة ، فيها ألوان من النقد مختلفة ، وأساليب في البيان متباينة ؛ ففيها

التهكم المر، وفيها الهجوم العنيف، وفيها المصانعة والحيلة، وفيها ردُّ الرأى بالرأى، وفيها تقرير الحقيقة على أساليب من فنون النقد، وفيها المراوغة ونصب الفخاخ للإيقاع، وفيها الوقيعة بين فلان وفلان، وفيها الزلفى إلى فلان وفلان، وفيها العلم والأدب والاطلاع الواسع العميق، وفيها شطط اللسان ومر الهجاء؛ وفيها فن بديع طريف، فيما حكى الرافعى عن كليلة ودمنة ...

ولكن أكثر هذه الفصول يطرد على مثال واحد إذا أنتَ نظرتَ إليه فى جملته، فيبدأ كل فصل منها بأسلوب أليم من التهكم يفتنّ الرافعى فيه فنوناً عجيبة حتى يبلغ نصف المقال؛ ثم يميل إلى طرف من موضوع الكتاب المنقود، فيتناوله على أسلوب آخر هو أقرب الأمثلة إلى ما ينبغي أن يكون عليه النقد الأدبى، لولا عبارات وأساليب هي لازمة من لوازم الرافعى فى النقد إذا كان بينه وبين من ينقده ثأر ... بَلَى إنها نموذج عال فى النقد العلميّ الصحيح لولا تلك العبارات وهذه الأساليب!

كليلة ودمنة

على أن مبالغة الرافعى فى التهكم قد شققتْ له فنوناً من المعانى والأساليب، لولا الناحية الشخصية منها لكانت نماذج لها اعتبار وقيمة فى أدب الإنشاء؛ وأبدعُ هذه الأساليب حديثُه عن كليلة ودمنة وما نحَاهما من الرأى فى طه حسين. وكليلةُ ودمنة كتاب فى العربية نسيج وحده، لم يستطع كاتب من كتاب العربية أن يحاكيه منذ كان ابن المقفع، إلا مصطفى صادق الرافعى. وكانت أول هذه المحاكاة اتفاقاً ومصادفة، فى مقالة من مقالات الرافعى فى طه حسين؛ إذ أراد أن يتهكم بصاحبه على أسلوب جديد، فبعث كليلةَ ودمنة ليقول على لسانهما كلاماً من كلامه ورأياً من رأيه؛ فلما أتم تأليف هذا الفصل عاد يقرؤه، فإذا هو عنده يكاد من دقة المحاكاة وقرب الشبه أن ينسبه — على المزاح — إلى ابن المقفع فلا يشك أحد فى صدق روايته، فنشره بعد ماقدّم له بالكلمة الآتية: «عندى نسخة من كتاب كليلة ودمنة ليس مثلها عند أحد ... ما شئتُ من مثل إلا وجدته فيها؛ وقد رجعتُ إليها اليوم فأصبتُ فيها هذه الحكاية ...

«قال كليلة: أمَا تضرب لى المثل الذى قلتَ يا دمنة؟ قال دمنة: زعموا أن سمكة فى قدر ذراع ... ...» ومضى فى اختراعه وتهكمه حتى انتهى إلى رأى دمنة فى الدكتور طه حسين..[1]

ثم استمر ينقل عن (نسخته الخاصة) من كليلة ودمنه ما يجعله مقدمة القول للتهكم فيما يلى من مقالات فى الرد على الدكتور طه حسين، فنشر منها ثمانية فصول طريفة ممتعة فى كتاب المعركة. وإن قارئُ هذه الفصول الثمانية ليرى فيها لوناً طريفاً من أدب الرافعى، لو أن الظروف واتته لأتمه فأنشأ به فى العربية إنشاء جديداً له خطر ومقدار. على أن الرافعي لم يكن يقصد أول ما قصد أن يتمه كتاباً، إنما دفعه إلى إنشاء هذه الفصول السبعة بعد الفصل الأول، ما لقى من استحسان القراء لهذا اللون الجديد من أساليب التهكم فى النقد؛ وأحسب أن الدكتور طه حسين نفسه كان معجباً بهذه الفصول الثمانية من كليلة ودمنه مع ما يناله فيها مما يؤلم ويسيء، كما كان يعجب فلان بما ينشر له من الصور الرمزية الساخرة لأن فيها فناً ومقدرة ...!

وانتهى الرافعى من حديث كليلة ودمنة بعد انتهاء هذه المعركة وظلّ مهملاً (نسخته الخاصة) ست سنين بعد ذلك، حتى تذكرها فى سنة ١٩٣٢ أو ١٩٣٣ فى إبان المعركة بينه وبين العقاد حول «وحى الأربعين» فنشر الفصل التاسع منها فى البلاغ بعنوان «الثور والجزار والسكين» ثم نشر فى الرسالة سنة ٩٣٥ الفصل العاشر بعنوان «كفر الذبابة!» يعنى بها مصطفى كمال وحركته الدينية، وفصلا آخر لا أذكره

وقد كان فى منّية الرافعى أن يتم هذه النسخة من كليلة ودمنة يعارض بها كتاب ابن المقفع أو يتمه، ولكنه لم يوفق، وكان فى ذلك خير؛ فهذه الفصول فى موضعها من الكتب التى نشرت بها أجمل وأخف، وإفرادها بالنشر يحملها على تكلف الصنعة ويباعد بينها وبين أذواق القراء. على أن هذه الفصول لا اتصال بينها فى موضوعها بحيث تصلح للنشر متساوقة متتابعة كما تتساوق الفصول والأمثال فى كتاب ابن المقفع

***

هذا مجمل الرأى وملخص الموضوع فى كتاب المعركة تحت راية القرآن وما احتواه. وهو وكتاب آخر اسمه «على السفود» خلاصة مذهب الرافعى فى النقد وأسلوبه فى الجدال؛ وفيهما أشلاء المعركتين الطاحنتين بينه وبين طه وبينه وبين العقاد، بدمائهما، ورِمامهما، ولهيبهما المستعر، ودخانهما الخانق، وغبارهما الكثيف..

لو تجرد هذان الكتابان من بعض مافيهما لكانا خيرماأنتجت العربية فى النقد، وأحسن مثال فى مكافحة الرأى بالرأى مع الاطلاع الواسع والفكر الدقيق. ولكن وا أسفا، إن الإطار يحجب ما فى الصورة من جمال، فمنذا — غير مالك الصورة — يستطيع أن يحطم هذا الإطار ليجعلوا الصورة فى جمالها على أعين الناس!

«شبرا» **محمد سعيد العريان**

(١) المعركة: ص ١٧٩ — ١٨٠

نهضة القصة فى لبنان

للسيدة وداد سكاكيني

كان من حظ لبنان أن هبت عليه ريح الثقافة اللاتينية بعد الحرب الكبرى ، فدبت فى أرجائه حياة أدبية جديدة نفخت فى أبنائه روحاً طموحا ، فذاق المتعلمون منهم أطيب ثمار الآداب الفرنسية ؛ ومنها فن القصة الذى كان له فى نهضة فرنسا الحديثة تأثير كبير سارها فى شتى مناحى الحياة . وليس بغريب أن يسمو فن القصة فى أمة ناهضة استيقظت على صرير الأقلام الحرة ، فقد عرف قادتها فى الرأى والتفكير كيف يشقون الدروب للموهوبين فى القصة والأقصوصة فكرموهم أجمل تكريم وضمنوا لهم حياة راضية حفزتهم للإجادة بالتنافس، فتسابق البارعون منهم إلى المجامع العلمية والندوات الأدبية يرفعون إليها قصصهم لينالوا جوائزها المعدة للفائزين

وأولى هذه الجوائز التى ظهرت فى فرنسا اعترافاً بالسمو الأدبى جائزة غونكور ، وما تزال موضع رجاء يتطلع إليه الأدباء بلهفة وإكبار . وقد تعد لديهم أعلى مكانة وأرفع قدراً من مقعد خالد فى الأكاديمية . وهناك جائزة فمينا وميركوردو فرانس والشاعر مالارميه ، كما أن المجمع الفرنسى يهب كل عام آلاف الفرنكات للمجيد فى كتابة القصة

ليس بعجيب كما أسلفت إذا كانت الأمة الفرنسية تعنى وهى فى أوج مجدها بالفن القصصى وتحذو حذو الروس لتمهيد السبيل لعباقرة الرواية الذين استطاعوا أن يخلقوا بفنهم الرفيع آفاقاً جميلة تعيش فيها جماعات وأفراد تترفع عن الإسفاف وتدنو من الكمال ، إذ ليس مثل القصة وسيلة لسرور الأسرة ورفعة الوطن ورقى المجتمع . ويحق للقصة أن يسطع نجمها فى الآداب العالمية لأنها أصدق مصور للحياة بأفراحها وأتراحها ، تؤدى أغراض الانسانية المنوعة على الوجه القريب الكامل ، وتبث فى النفوس ما ترمى إليه من أهداف وآراء بسهولة وإغراء

ولقد تأثرت ناشئة لبنان فى عهده الجديد بآداب الفرنسيس الطريفة فذاقوا حلاوتها ، ونشقوا عبيرها ، وكان من إقبالهم عليها وفهمهم إياها ما نراه اليوم من شغف ظاهر بفن القصة ومحاولات موفقة فى إنشائها وترجمتها ، وتوجيهها إلى الصدق والإبداع .

إذن لم يشهد لبنان نهضة فى الفن القصصى إلا منذ عهد غير بعيد لأنها فى أدبه العربى الحديث وليدة الأمس القريب ، وكما يكون كل عمل فى أوله غثاً وكل غيث قطراً ، فكذلك ابتدأت القصة حياتها فى لبنان ، وكان أول من أطلع من أفقه شمسها فى نهضتها الحديثة كرم ملحم كرم ، فقد أنشأ مجلته « ألف ليلة وليلة » لتكون عاملاً قوياً فى بناء القصة العربية ، فكان يزجى لقرائه كل أسبوع هدية أدبية إما من وضعه أو تعريبه ، وما يزال هذا دأبه منذ عشرة أعوام ونيف ، ولكنه برغم ما أوتى من موهبة فنية مرهفة ولسان عربى مبين لم يطبع قصصه الأسبوعية إلا قليلاً بطابع الآداب الرفيعة ، فقد دعته مساوقة أكثر القراء إلى أن ينزل بقصصه إلى مراتبهم ووفق متناولهم من ثقافة أو معرفة ؛ وعذره فى ذلك أنه يقدم للمجموع ما يفهم ويرغب ويعود عليه بما يثبت قدمه فى عمله الصحافى . فلو أن الحكومة اللبنانية تسير على غرار الحكومات فى الغرب فتخصص الاعانات المالية والجوائز للكتاب الذين لهم فى يقظة الشعب وتغذيته وإصلاحه أكبر الأثر كى يتوفروا على أعمالهم الأدبية ويخلوا إلى تجويدها والتفوق بها بسكينة واطمئنان المعاش — لكان هذا الأديب زعيم القصة بلا منازع فى نهضتها الحديثة بلبنان . بيد أن الأستاذ كرماً مع انهماكه بجهده المرهق الموزع بين الصحافة والأدب استطاع أن يخلد فنه القصصى فى روايتيه « صرخة الألم » و « المصدور » وبعض أقاصيصه البارعة التى كفلت له منزلة القصصى العربى فى عصرنا الحديث . على أن مجهوده فى سبيل القصة بلبنان سيسجله تاريخ هذا الفن العريق بأحرف من نور . ولن ينسى فضله المنشئون المخلصون الذين عرفوا من تأليفه وتعريبه معنى القصة فسلكوا سبيله ، بالاقتداء والاحتذاء ، مكان له فضل البادئين السابقين إلى توجيه الفن القصصى اتجاهه الراهن

وحين ملأ الأستاذ كرم أجواء لبنان وبيئاته بشذا رواياته قام نفر من نوابغ الكتاب ينشرون القصة والأقصوصة فى معناها الحديث . وهذه الطائفة من الأدباء وُفقت فى محاولتها ففتحت فى الأدب القصصى فتحاً مبيناً ، إذ اتسع أفقه وتوفرت موضوعاته ورأينا من أجله حدباً عليه وتشجيعاً لكتابه ، فقد أقامت مجلة « الدهور »[(1)] البيروتية مباراة للأقصوصة عام ٩٣٤ فاز بجائزتها الكاتب فؤاد الشايب وهو من أدباء الشام الذين يملأون ما يكتبون بأدب الصراحة والحياة

(١) خلفت هذه المجلة فى بيروت أول صدورها مجلة « المصور » التى كان ينشرها فى مصر الكاتب المفكر اسماعيل مظهر ولكنها احتجبت بعد ظهورها ببضعة أعوام وكان لها نزعة خاصة فى تحرير المجتمع وإصلاحه

وفى العام الماضى تبرع الشاعر يوسف غصوب بجائزة للأقصوصة العربية في جريدة « المكشوف » اللبنانية تعزيزاً لهذا الفن الذى يقدره الشاعر وله فيه صور خالدة . وقد نالت جائزة غصوب كاتبة هذه السطور . وما انفك الأدب العربى فى لبنان مولياً وجهه شطر القصة موالياً السير إلى الأمام بهمة المضطلعين بتسديد خطواته من الأعلام الغُيُر

على أن من البر بالحقيقة ومن الواجب علىَّ – خدمة للتاريخ – أن أذكر أديبين كان لهما أثر واضح فى النهضة القصصية الجديدة ، فقد كتبا الأقصوصة ببراعة وشجاعة فوُفِّقا فيها وتهافت قراؤهم عليها ، فاستحقا الشكر لدفعهما النشء العربى عن تلك الأقاصيص المبتذلة التى تنشرها الصحف التجارية لتسلية القراء ولهوهم

لقد نوهت الأقلام فى العامين الماضيين بقصص الأديب الموهوب توفيق يوسف عواد الذى أكب على كتابة الأقصوصة التى تمثل الطبقة الدنيا فى المجتمع اللبنانى ، وكان الفن معواناً له على وصف البؤس العنيف الذى يفتك بأبناء الشوارع والصعاليك وذوي العاهات . غير أنه يغلب على نسج قصصه الأسلوب الصحفى بحكم عمله اليومى . وقد نشر مجموعتين : « الصبى الأعرج » و « قميص الصوف » والأمل معقود بهذا الشاب ، فان له شأناً فى القصة اللبنانية . وأقول اللبنانية لأن قصصه موسومة بكل ماهو لبنانى إقليمى . وليس هذا بضائره فان أكابر القصصيين فى عصرنا يمتاز كل منهم بوصف ناحية من نواحى الحياة أو بدرس أطوار جماعة من الناس أو بتصوير الألوان المحلية فى البيئة التى يعيش فى جوها ، ويتنفس هواءها ويرى نورها

وبينما الناس معجبون بباكورة عواد القصصية أقبل عليهم أديب رفيع العماد هو خليل تقى الدين . لقد نشر قصصه العشر أو التسع على الأصح لأن إحداها مترجمة لا موضوعة فرفع بأسلوبه المشرق وديباجته الأنيقة قدر الأقصوصة العربية ، ورأينا في قصصه التى سلخها من صميم الحياة ما هو حرى بأن يتخذ مثالاً للرواية الفنية الحديثة

لا أعدو الحقيقة ولا أغلو إذا قلت إن هذه البوادر الطيبة كانت تباشير النهضة القصصية فى لبنان ففيها الأمل كل الأمل بتقدمها وازدهارها . وكيف كان الأمر ليقظة القصة ونهضتها فى لبنان ، فإن مصر اليوم زعيمة القصة العربية ، وهى السباقة فى حلبتها والقدوة لغيرها ، ولن ينزع منها زعامتها الأدبية هراء حاسد ولا حملة حاقد

هذا قول عاجل . وسأعود قريباً إلى دراسة المؤلفات اللبنانية فى القصص وتحليل مضامينها وألوانها

وداد سكاكينى

الحضـــــارة المصرية
في عهد الدولة القديمة

بحث للعلامة الأثرى اربك بيت

للأستاذ احمد نجيب هاشم

(تابع)

دل قيام الملكية الواحدة فى مصر على تقدم عظيم ، تقدم جمل كثيرين يعتقدون أنه راجع إلى إغارة شعب أجنبى أكثر حضارة ، ولكن المستكشفات الحديثة لا تؤيد هذا الرأي . أجل إن مقابر الأسرة الأولى تفوق بمراحل مقابر ما قبل الأسرات مباشرة ، ولكن يجب أن نتذكر أن هذه المقابر الأخيرة إنما هى مقابر عامة الناس، ولم يعثر على مقابر ملوك ماقبل الأسرات ، فلا يصح أن نقرن مقابر عامة الناس فى عصر ما بمقابر ملوك فى عصر آخر

والحقيقة نفسها توضح لنا كيف أن الكتابة تظهر فجأة في الأسرة الأولى بشكل بعيد عن حالتها الأولية ، إذ كان الخط المستعمل هو الخط الهيراطيقى ، وهو كما لا يخفى اختزال للهيروغليف فلابد إذن أن يكون هذا الأخير مستعملاً قبل حكم الأسر بزمن طويل . وإذا قصرنا أنفسنا على نوع واحد من المقــابر رأينا أن الانتقال من قبل الأسرات إلى عهد الأسرات حدث تدريجياً . ثم إن الأعمال الفنية فى الفترة الأخيرة السابقة للأسرات ومن أهمها لوح « نارمر » الأردوازى ومقبض سكين جبل العرك تدل على أن فن الأسرة الأولى هو ثمرة نمو تدريجى لأهل البلاد

أما وقـد قامت الملكية فكان لابد للأنظمة الاجتماعية والسياسية أن تتطور إلى حد بعيد ، ولم يكن الملك المصرى فى أول الأمر إلا رئيساً محلياً ممتازاً

وكان رئيس القبيـلة حاكما وكاهناً أكبر ومشرعا لقبيلته فأصبحت هذه الوظائف كثيرة على الملك بعد أن اندمجت القبائل قهراً وطوعا وأصبحت مصر مملكة واحدة ، لذلك اضطر أن يتنازل عن بعض هـذه الوظائف ، ولـكنه ظل نظريا الـكاهن الأكبر لـكل إله ، فنراه في نقوش المعابد برأس كل الحفلات الدينية الهامة ، وإذ كان من المستحيل أن يوجد في مكانين فى آن واحد كان لابد أن ينوب عنه كهنة ، وبذلك نرى فى أيام المملكة القديمة نواة طائفة الـكهنة المحترمين آخذة فى التـكون

ولا نعرف شيئاً كثيراً عن تاريخ الملـكية فى عهد الأسرات الثلاث الأولى ؛ فاذا وصلنا إلى الأسرة الرابعة وجدنا مادة كثيرة نستطيع أن نـكون منها صورة هامة عنها ، ومع ذلك يجب أن نذكر أن مادتنا هذه تتكون إلى درجة كبيرة من ألقاب ، وهذه قد تـكون مضللة لاسيما وأن فرعون كان يغدقها عن سعة على المقربين اليه حتى اضطر أصحاب الوظائف الحقيقية أن يلجأوا في كثير من الظروف إلى إضافة كلمة الحقيقى بعد لقبهم تميزاً لهم عن غيرهم (١)

الحـكومة المحلية

كانت حكومة البلاد فى يد إدارات محليـة تشرف عليها الحكومة العليا وعلى رأسها الملك . وكانت الولاية هى الوحدة الادارية ويرأسها الأمير أو حاكم الاقليم ، وكان حاكماً وقاضياً ومدبراً فى ولايته وهو فوق ذلك الـكاهن الأكبر لإلـهها المحلى ويتمتع بحرية كبيرة داخل حدود ولايته

على أن هذا الحاكم كان مسئولا أمام الحكومة العليا عن ضرائب ولايته ، وعن إدارته لها إلى حد ما . والظاهر أن انقسام البلاد إلى إمارات على هذا الشكل هو أثر لانقسامها إلى قبائل قبل هذا التاريخ . وكان الأمراء يتوارثون الحـكم فى الولايات بعد موافقة الملك لأن الأرض نظرياً كانت كلها ملـكه

الحـكومة العليا

وليست معلوماتنا عن الحـكومة العليا أكثر منها عن الحـكومة المحلية إن لم تكن أقل ؛ فالملك هو الرئيس الأعلى ، وفى عهد الأسرة الثالثة بدأ فرعون يختار وزيراً لمساعدته فى المسائل القضائية والادارية ، ونجد أن ملوك الأسرة الرابعة يختارون وزراءهم من أبنائهم ، ثم أصبح فرعون يختار وزيره بعد ذلك من أسرة أخرى إذا شاء . وكان أكثر رجال المملكة مسؤلية لأنه كان الرئيس المباشر لأعمال الموظفين فى الحكومة الفرعونية كافة من إداريين وكتبة من أكبرهم إلى أصغرهم ، وكان يشترط فيه أن يكون بارعاً فى فن العمارة ، ومن أهم وزراء الأسرة الثالثة الوزير الحـكيم « امحتب » الذى برع فى الطب والعمارة وشيد لمليكه زوسر هرم سقارة المدرج

(١) برستد تاريخ مصر ترجمة الدكتور حسن كمال

ويساعد الملك غير الوزير عدد من الموظفين ، وكانت أعمال خزانة الدولة فى يد بيت الفضة والشونة المزدوجة إشارة إلى الشونة الملكية ، كذلك نسمع عن كنوز الاله أى الملك وكنوز ملك الوجه البحرى (وهذا من غير شك لقب قديم ظل بعد اتحاد القطرين) ونقرأ أيضاً عن مراقبى بيت الفضة ومخازن الغلال . ويرجح أن تجزئة إدارة القطر المصرى بين وجهيه لم تذهب إلى أبعد من التجزئة الاسمية ، وقد حافظ المصريون على هذا الازدواج الاسمى فى مصالح الحكومة ، مع أن وجهى مصر انضما معاً تحت إدارة واحدة ، وإنما فعلوا ذلك احتراماً للقديم الراسخ فى الأذهان[1] ولكن بالرغم من أن الملك اضطر أن يتنازل عن بعض وظائفه إلا أنه ظل ملكا مطلقاً

من السهل أن نتبين مزايا هذا النظام وعيوبه ، فمتى كان فرعون قوياً يمكنه أن يضع حداً لمطامع الأمراء فالنظام سليم لأن الحكومة فى كل اقليم كانت فى يد أشخاص خبيرين بالشئون المحلية . أما إذا كان الملك ضعيفاً فان تلك السلطة الهائلة التى يتمتع بها الحكام المحليون تصبح خطراً على الدولة يهدد كيانها ، ولهذا السبب عينه يرجع سقوط الدولة القديمة فى نهاية الأسرة السادسة ثم إغارة الأسيويين أثر ذلك على الدلتا فقد أخذت قوة الأمراء تزداد تدريجياً على حساب الملكية

والآن علينا أن نسأل كيف كان نظام المجتمع فى ذلك العصر؟

الملك وبلاطه

كان على رأس الدولة الملك وبلاطه ، وقد كونوا بيروقراطية كبيرة تهتم بالألقاب اهتماماً عظيماً فنرى ألقاب البعض يقرب عددها من الثلاثين أو الأربعين أغلبها لا معنى له ، وبجانب هذه البيروقراطية المركزية نجد بيروقراطية أخرى مشابهة لها فى قصبة كل إمارة ، وكان لكثير من هؤلاء الموظفين أملاك واسعة فى ولاياتهم

الفلاحون

يفصل الموظفين عن الفلاحين بون شاسع ، لأن هؤلاء كانوا يشتغلون كعبيد فى مزارع الملاك ، يحرثون الأرض ويروونها ، ويتعهدون الماشية والأغنام ، ولا نسمع عن وجود طائفة وسطى بين الطبقتين الآنفتى الذكر ؛ فإن كان هناك طبقة من هذا النوع — ولا بد أن التجار وأصحاب المهن والحرف كونوا طبقة — فإنها لم تكن غنية بدرجة تكفيها لأن تفاخر بفضائلها فى مقابر منقوشة نقشاً جميلاً ، ولا بد أنها كانت معتمدة على نفسها ولم تعد من طبقة الخدم ، لأننا نجد الأمراء يوامون برسم خدمهم على جدران مقابرهم . كذلك لا نعرف شيئاً عن مركز الكهنة الاجتماعى ، وإنما نعرف أن عددهم كان وافراً ، وأنهم كانوا يعيشون على الهبات التى تقدم إلى المعابد ؛ وإن صح لنا أن نذكر تعميماً عن الحياة فى المملكة القديمة فإننا نميل إلى القول بأن الأمراء وكبار الموظفين كانوا سعداء الحظ بينما كان الفلاحون تعسين فهم عبيد يلحقون بالضياع الواسعة ، وينتقلون من مالك إلى آخر كأنهم جزء لا يتجزأ عن الأرض ليس لهم حقوق على أسيادهم ، إذا ارتكب واحد منهم أقل هفوة فالجلد المضنى عقابه ، وأشد من هذا وأنكى أنه لم يكن لهم سيد واحد بل اثنان ، فاذا جاء الفيضان وغطى ماؤه الأرض وأصبح العمل فى الحقل مستحيلا لمدة طويلة كان على الفلاح أن يقوم بعمل آخر فى خدمة الملك ، إذ عليه أن يذهب لينقل الأحجار التى قطعها العمال من المحاجر الواقعة تجاه منف فيشتغل هو وزملاؤه تحت إشراف موظفى الحكومة ، وينقلون الأحجار فوق الحقول المغطاة بالمياه إلى حيث يريد الملك أن يبنى هرمه ، ولم يكن لهذه العملية نهاية فان أول ما يفكر فيه الملك عند إخلائه العرش هو بناء مقبرة له ، فاذا أتمها قبل أن يموت أخذ يحسن ويوسع فيها ، وإذا انتهت أيامه فهناك هرم خلفه لابد من بنائه

وقد اهتم المصريون القدماء كما نفعل اليوم بفيضان النيل ، وهذا أمر طبيعى فان سقطت الأمطار بغزارة على الجبال القائمة فى الجنوب الشرقى من مصر خافوا فيضاناً عالياً يهدد حياتهم ، ويغرق جزءاً كبيراً من أراضيهم ، وإن قلت الأمطار توقعوا فيضاناً منخفضاً يتلوه قحط ومجاعة فى البلاد ، فكانوا إذا اقترب وقت الفيضان يتحدثون عن النعم التى يغدقها عليهم « نيل طيب » ويبدؤون فى البحث عن الوسائل التى يجب عليهم اتخاذها وقت الخطر ، إذ كان كل واحد منهم يتأثر بهذا الحادث السنوى — كل حريص على محصوله — أما موظف الحكومة فعليه أن يحسب مقدماً مقدار ما ستأخذه الحكومة من محصول كل شخص ، وهذا هو الضريبة الرئيسية . كذلك كان يعد الحازمون من الحكام العدة لإطعام فقراء إقليمهم إذا ما انخفض الفيضان ، ويخزنون الحبوب للمستقبل إن كان المحصول أكثر من المتوسط

(البقية فى العدد القادم)

احمد نجيب هاشم

[1] برستد : تاريخ مصر ترجمة الدكتور حسن كمال ص ٥٤



رسالة الشعر



تحية الرسالة

في مستهل عامها السادس

للأستاذ محمود الخفيف

البَسي الحسنَ رداءً — واملأي الدنيا رُواءَ
ابزغي كالشمس نوراً — وحياةً وعلاءَ
أقرضي الشرقَ سَناهُ — وخُذي الحمدَ جزاءَ
واسحبي في المجدِ ذيلاً — لم يُعوَّدْ خُيَلاءَ
وارفعي للنجم طرْفاً — أبداً يَهْوَى السماءَ
وانشري ماسِرْتِ في الأر — ض طموحاً وإباءَ
واجعلي عهدَكِ في الشَّرْ — قِ سلاماً وإخاءَ
أيْقِظِي العِزَّةَ فيه — والعلا والكبرياءَ
جَدِّدِي رُوحاً بها أمْـ — سِ على الدُّنْيا أضاءَ
لَمَعَتْ في طور سينا — ومَشَتْ تبغي حِراءَ

***

ايهِ ياشمسُ، بها الشر — ق مع النيل استضاءَ
جَمَعَتْ فضْلاً وعلماً — وجَلالاً وذكاءَ
الشبابُ الطامحُ الحرُّ — اجْتَلى فيكِ اللواءَ
سار في ضوئك للعلياء — ما شئتِ وشاءَ
رقرقي الأضواء في الآ — فاق واجتازي العَماءَ
وابعثي فيها من الرأ — ي وميضاً وسناءَ
احْفِزي للفوز أبنا — ءً كراماً بُسَلاءَ
ذَكِّريهِمْ عهدَ قومٍ — رفعوا أسس البناءَ
عصبة شقوا إلى العزّ — ة والنصرِ الجِواءَ

***

يا ابنةَ الضّادِ لَكَمْ أحْسَنْتِ في الضّادِ البَلاءَ
قد سما فضْلُكِ حتى — فاتَ في القدْرِ الثناءَ
دانَ بالفضْل لك اليا — نِعُ والغضُّ سواءَ
وجَدا عِندَكِ خِصْباً — وحياةً ونماءَ
وجَنًى حُلْواً وسَلْسا — لاً وظلاً وشِفاءَ
وجَمالاً عبْقريّاً — وصفاءً وبهاءَ
أنْتِ أوحَيْتِ إلى الأفْـ — راخِ في الرّوضِ الغِناءَ
وبعثتيهم عن الماضـ — ين سلوى وعزاءَ
أنْتِ قرّبتِ على البُعْـ — دِ بنيكِ الفصحاءَ
وحَشَدْتِيهم على الحـ — قِّ جنوداً أوفياءَ
فِتْيَةً صاروا بمسعا — كِ لمصرٍ أولياءَ

***

طُفْتِ بالكأس دهاقاً — وسقَيْتِ النُّدَماءَ
أدَباً كالكوثرِ العذْ — بِ نقاءً وصفاءَ
فيه آمالُ بلادٍ — بِتْنَ للمجْدِ ظِماءَ
وسُلافاً من حديثٍ — يَملأُ القلبَ انتشاءَ
كنسيم الصُّبح يجري — عاطرَ الذيلِ رُخاءَ
باعثاً ذِكرى عهودٍ — قد توالَيْنَ انقضاءَ

نجوى الحرية (١)

للأستاذ محمد بهجة الأثرى

الحسنُ أنتِ مثالُهْ   والكونُ أنتِ جمالُهْ
وأنتِ فى دَيْرِ قلبي   تسبيحُهُ وابتهالُهْ

* * *

عَبَدْتُ فيكِ الكمالا   كما عَبَدْتُ الجمالا
ما أنتِ إلا مَلاكٌ   عن العيوبِ تعالى
أَشْبهتِهِ رِقَّةً   والسَّماحةَ وخَيالا
فما أرى لكِ بين الـ   ـملا - لعَمْري - مثالا
وإنما أنتِ معنى   فى الكونِ أعيا مِثالُهْ

* * *

رُوحٌ ولكنْ مُجَرَّدْ   نعَمْ ، ونورٌ مُجَسَّدْ

(١) من ديوان « ظلال الأيام » الماثل للطبع

وبياناً مثل وَشْيِ الرَّ   وض قد راقَ ابتداءَ
يُعْجِبُ الرَّاسخَ صوغاً   واتِّساقاً وجَلاءَ
وَيُرى النَّاشئَ فنّاً   يتوخَّاهُ اقتداءَ
مضمٌّ للقلب معاً والعـ   ـقلِ رِيّاً وغذاءَ

* * *

يا عَرُوساً عيدُها يُو   حِى إلى النفْسِ الوفاءَ
لَسْتُ أنسىَ لكِ عندى   مِنَناً غُرّاً وضاءَ
كشفَتْ يُمْناكِ عن عيْـ   ـنى وعن قلبي الغطاءَ
حُزْتُ فى حِجْرِكِ فَضْلاً   وصَحِبْتُ الفضلاءَ
يا عَرُوسَ السِّحْرِ والحكْـ   ـمةِ مُلِّيتِ البقاءَ
وتَزَيَّدْتِ عَلَى الدَّ   هرِ عُلُوّاً وارتقاءَ
عشْتِ للفُصْحَى لواءً   وَمَناراً ورَجاءَ

(القاهرة)   الخفيف

غشّاه ، وهو لَمُوعٌ ،   إفرِنْدُهُ فتوقَّدْ
تألّقَ البَرْقِ فى الأفْـ   ـقِ وَهْوَ يَنْقَى ويغمَدْ
والبَدْرِ فى صفحةِ المـا   ءِ ، والنسيمُ تنهَّدْ
يا بَسْمَةَ الكونِ أنتِ الْـ   ـهوَى وأنتِ وصالُهْ

* * *

البَدْرُ لاحَ تَماماً   يَفيضُ منكِ سَناهُ
والزَّهْرُ فاح ذكيّاً   يَنِمُّ عنكِ شَذاهُ
والقَطْرُ ساح نقياً   يَرْوِى صفاكِ صَفاهُ
والفَجْرُ لاح بَهيّاً   من وجنتَيكِ ضياهُ
والطيرُ ناحَ شجيّاً   عليكِ منكِ انْفعالُهْ

* * *

رقَّتْ حواشيكِ حتى   رقَّ الهوا لِخِلالِكْ
لكن قلبكِ قاسٍ   على مُريدِ وِصالِكْ
بَخِلْتِ حتى خَيالاً   فمَنْ له بخيالِكْ ؟
أينَ الوُعودُ اللواتي   مَنَّيتنى باقتبالِكْ ؟
شهرُ الصيام تولّى   فالعيدُ أين هِلالُهْ ؟

* * *

غُمَّتْ عليهِ السماء   أم طاولَتْ (أسماء) ؟
بلى ، وما كانَ ظنى   ألاّ يكونَ انجلاء
مارَسْتُها فتأبّى   علىَّ منها الوَلاء
أهكذا كلُّ حسناءَ   ما لديها وفاء ؟
يا وَيْحَ صَبٍّ تعايا   فى الوَصْل عنه غزالُهْ

* * *

يا رَوْحَ قلبى المُعَنَّى   كلُّ الوعودِ رياحُ
مافى الأماني أمانٌ   إنْ لم يُعنكَ السلاحُ
تلك العروسُ ولكن   أين الصداق المتاحُ ؟
قد زاحمَتْكَ عليها   مناكبٌ وصِفاحُ
فاحتلْ عليها عسى أنْ   يُجْدِى الكريمَ احتيالُهْ

« بغداد »   محمد بهجة الأثرى

أحب وأحتقر!

للأستاذ أمجد الطرابلسي

أحبُّ الجبالَ الشامخاتِ كأنّها   على جبهةِ الدنيا تصولُ عواتيا
تضاحكُ من عصفِ الرياحِ وزأرِها
وتحتضنُ السيلَ الحرونَ المعاديا
وتلهو عن الزلزالِ وهوَ مزمجرٌ
يضجُّ ببطنِ الأرضِ غضبانَ واريا
وأحتقرُ الكثبانَ ترعشها الصَّبا   ويفزعها الإعصارُ إن مرَّ لاهيا
وتحملها الأرياحُ أنّى توجّهت   ألاعيبَ فى أسفارها وألاهيا

* * *

وإنّي لأهوى السَّيلَ ينحطُّ مزبداً
ويدفقُ جيّاشاً ويهدرُ صاخبا
عتيّاً على السدِّ المنيعِ يدكّهُ   ويحملهُ نحو السهولِ خرائبا
يمرُّ على العشبِ الضعيفِ مسامحاً   ويلتقفُ الدوحَ العنيدَ المغالبا
وتحقرُ عيني جدولاً فى خمائلٍ   يحوّلُ طفلُ الحيِّ مجراه لاعبا
يكدّرُهُ حتى النسيمُ ملاطفاً   ويفزعُهُ حتى فمُ الطفلِ شاربا

* * *

أحبُّ العقابَ الجونَ يختالُ في الذرا
ويركبُ متنَ الجوِّ جذلانَ باسما
ويخترقُ الريحَ العصوفَ لقصدهِ   ولو حطّمت من جانحيه القوادما
يموتُ ولا يشكو الجراحَ ولا ترى   له آكلاً بينَ الأنامِ وهاضما
وأحتقرُ الورقاءَ تألفُ سجنَها   وتبكي وما تلقى من الناسِ راحما
وهل غيرُ ضعفِ الوُرقِ سوّغَ حبسَها
وصيّرَ شدواً نوحَها والمآتما

* * *

وإني لأهوى نحلةً تدهمُ الرُّبا   فتنهلُ من ثغرِ الزهورِ رحيقَها
ترشّفُ من كأسِ الأقاحي صبوحَها   ومن خمرةِ الوردِ النديِّ غبوقَها
حصانٌ تروعُ العاشقينَ بوخزِها   إذا ما تمنّوا لو يذوقونَ ريقَها
وتحقرُ عيني نملةً تألفُ الوَنى   وتملأُ من بخسِ الفتاتِ خروقَها
تدبُّ على الأقدامِ هوناً وذلّةً   وتسلكُ من تحتِ النعالِ طريقَها

* * *

أحبُّ شموخَ الدوحِ فى ربواتهِ   يجابهُ هولَ العاصفاتِ ويثبتُ
أبيّاً على حربِ الأعاصيرِ ظافراً   تكرُّ جموعاً حولَهُ فتشتّتُ
وإنْ خرَّ فى الميدانِ بعد نضالِها   تراها عليه نائحاتٍ تصوّتُ
وأحتقرُ الأعشابَ تحني رؤوسَها   فتسلمُ من ريبِ المنونِ وتفلتُ
تدورُ معَ الإعصارِ حيثُ يديرُها   ويلطمُها هوناً فترضى وتسكتُ

* * *

وإني لأهوى الليثَ يستعذبُ الطوى
ويأنفُ أن يُدنى إلى جيفةٍ يدا
يسيرُ أشمَّ الأنفِ مستكبرَ الخطا   فترجفُ البيداءُ إن راحَ أو غدا
ويجبنُ وحشُ البيدِ فى حرِّ وجهها   ولا يدرى أعداءه متصيّدا
وتحقرُ عيني ثعلباناً مخادعاً   جباناً خليعَ القلبِ يغدرُ بالعدا
يصيبُ فضالاتِ السباعِ ويبتني   ليشكرَ رزّاقَ العبيدِ ويحمدا

* * *

أحبُّ الفتى يفري الفلاةَ مهجّراً   فلا يشتكى أيناً ولا يتظلّمُ
إذا لذعتهُ الشمسُ سدّدَ وجهَهُ   إليها حديدَ الطرفِ لا يتبرّمُ
ويمشى على الرمضاءِ متّئدَ الخطا   جليداً ، ونيرانُ الرمالِ تضرّمُ
وأحقر نكساً يستظلُّ بغيره   ويخفضُ رأساً وهو شاكٍ يدمدمُ
تساورُهُ الأشباحُ في القفرِ رهبةً   فيرعشُ منهُ القلبُ والطرفُ والفمُ

* * *

أحبُّ الفتى والغلُّ يثقلُ عنقَهُ   وسيفُ الأعادي بينَ عينيهِ مشهرُ
يصيحُ بأعلى صوتهِ ينكرُ الأذى
ويضحكُ من بطشِ الطغاةِ ويسخرُ
ويشمخُ بالأغلالِ رأساً وإن غدتْ
تحزُّ ومن أنيابها الدمُ يقطرُ
وأحتقرُ الأحرارَ يحنونَ رأسهم   وليس عليهم سيّدٌ أو مسيطرُ
إذا كانَ قلبُ المرءِ عبداً ورأيُهُ
فقل لي — هديتَ الخيرَ — ماذا تحرّرُ

(دمشق)   **أمجد الطرابلسي**



أقصوصة من لويزا ألكوت

في عيـــد الميلاد

للأستاذ دريني خشبه

قبل أن يتنفس صباح عيد الميلاد استيقظت الفتاة (جو) والفجر لم يكد ينبلج في الأفق الشرقي ، ولا الخيط الأبيض قد انسرق من زجاج النافذة لينير ظلام الحجرة الدافئة ... ولكن جو استيقظت مشوقة إلى هدايا العيد ، ومدت يدها الصغيرة المرحة إلى جوربها المعلق في (شباك) السرير ليملأه الملاك بأحب اللعب... ولشد ما شعرت بالخيبة حين وجدت الجورب فارغاً مما أملت أن يمتلئ به ، فكتمت أنفاسها ، وأخفت حسراتها في أغوار قلبها ، ودست يدها تحت الوسادة التي تحدرت فوقها دموعها ... بيد أن أصابعها اصطدمت بشيء يشبه الكتاب تحت الوسادة ، فأمسكت به ، فإذا هو كتاب حقاً ذو جلد سميك مقوى ، لم تدر من وضعه هنا ... وقفزت من فراشها ، وأشعلت المصباح ، ونظرت في الكتاب ، فراعتها جلدته الجميلة الزرقاء ، وصوره الخلابة الملونة ، وطبعه الأنيق المتقن ... وقرأت فيه قليلاً فعرفت أنه قصة حاج يطوف بأقصى الأرض ليبلو أعاجيب الدنيا ... فتبسمت جذلاً ، وبادرت إلى أخواتها توقظهن :

— « ماجي ! إنهضي يا أختاه ... لقد أهدى إلى الملاك كتاباً فيه صور جميلة ... بث ! قومي ! إستيقظي ! أنظرى إلى الكتاب الذى أهداه الملاك إلى ! إيمى ! هلمى فتفرجي ... ! »

واستيقظت ماجي فسألت أختها وهي تفرك عينيها أين وجدت الكتاب ؟ فلما أخبرتها أنها وجدته تحت الوسادة ، دست ماجي يدها تحت وسادتها فوجدت كتاباً مثل كتاب أختها ، ولكن جلدته خضراء ، ورأت فيه صوراً رائعة ملونة أجمل من الصور التي في كتاب أختها ... ففرحت فرحاً شديداً ... ولما استيقظت بث ، وجدت هي الأخرى كتابها ذا الجلدة الحمراء ، وكذلك وجدت إيمى كتابها ، ولكن إيمى وجدت جوربها ممتلئاً بالحلوى والملبس والفستق ، فصاحت بملء فيها صيحة الفرح ، وراحت تنافس أخواتها وتفخر عليهم ... وقد أحس أخواتها بانتصارها حقاً ، واتهمن الملاك الكريم بأنه لم يعدل في القسمة ، وإلا فإنه كان ينبغي أن يملأ جورباتهن كما ملأ جورب إيمى ... وطال حوارهن ، واشتد صخبهن ، وكان حواراً وصخباً مملوءين بالضحك ، مفعمين بالاستبشار بعيد الميلاد السعيد ... وكانت بهجة تلقين بها العيد قبل مطلع الشمس كالبهجة التي يتاقى بها الطفل قبل أن يولد

وذهبت جو إلى غرفة أمها — وكان أبوها على سفر — لتوقظها فلم تجدها ، وظنت لساعتها أنها ذهبت إلى الكنيسة لتشكر للملاك الكريم ما أتحف بها بناتها من الكتب الجميلة ذوات الصور الملونة ، وما .. أتحف به إيمى من الحلوى .. فعادت جذلانة إلى الغرفة ، وما كادت تتحسس جوربها المعلق في (شباك) السرير حتى وجدته مثقلاً ! فاستبشرت وطفر قلبها ، وأفرغت ما في الجورب فوجدت قدراً هائلاً من الفستق المعالج بالسكر والكستناء المثلوجة ... شيء عجيب حقاً ، لقد تحسست الجورب منذ ساعة فلم يك فيه شيء من هذا ... لله ذاك الملاك الكريم البار ... وعجب البنات عجباً شديداً ، فذهبت كل تتحسس جوربها فوجدته مفعما ... فطرن من الفرح ، واشتد الصخب من جديد وعلا الضحك ... وأشرقت الشمس ... ووقفت جو وسط

أخواتها تهتف كأنها امبراطور : « أخواتي ! إسمعي يا بت ، أصغي يا ماجي ... انتبهي يا إيمي ... لنبق على الحلوى حتى تعود أمنا فتشركنا فيها ... ولنشرع من الآن في قراءة الصفحة الأولى من الكتاب الجديد ، حتى إذا عادت الوالدة سرت بذكائنا سروراً لا مزيد عليه ... وبذلك نرضي الملاك الكريم الذي أتحفنا بالكتب وبالحلوى ، ولم يعدنا صغاراً فلم يتحفنا بما كان أحجى أن يتحفنا به من اللعب ... هو ملاك كريم على كل حال فلنشكره قبل أن نبدأ ...

ورفع الصغار أيديهم إلى السقف ... وركعن على ركبهن ورحن يشكرن الملاك الكريم ، ثم اعتدلن ، وأخذن في قراءة الصفحات الأوليات ... وكان منظرهن كمنظر الملائكة الأطهار الأبرار الأخيار . وإن تكن إيمي الصغرى لم تكن تفكر في هذا الملاك الذي ضايقها بهذا الكتاب ، ولم يتحفها بلعبة تفخر بها على أترابها إذا كان الصباح ، وبرز الأطفال في الشارع يتنافسون ويفخرون ... ولم تكد تفهم من أجل هذا سطراً واحداً من الصفحة الأولى من كتابها ، بل سمرت وجهها في الصورة الملونة ، وراحت تفكر وتدمن التفكير ، في شح هذا الملاك الكريم باللعبة التي لا محيص منها في عيد الميلاد !

ولم يكد الصغار ينتهين من قراءتهن حتى دخلت أمهن وفي إثرها حنة الخادمة العجوز ، مثقلتين بكثير من اللعب وشيء غير قليل من الرقائق والشطير والفطير وحلوى الكاكاو للإفطار ولقينها بالبشر ، ولقيتهن بقبلة سعيدة طبعتها على جبين كل منهن إلا إيمي الصغيرة فقد طبعت لها قبلة طويلة على خدها .. وسرعان ما غفرت إيمي للملاك الكريم ما كان منه من شح بلعبة عيد الميلاد حين أخذت حصانها الخشبي الكبير فعلت صهوته ، وأنشأت تمرح وتصخب ، وتقول : « كتاب ! أنا لم أقرأ حرفاً واحداً من الصفحة الأولى يا جو ... » ولكن جو نظرت إليها في ظرف ، ثم قالت لأمها : « ولكنا قرأنا الصفحة الأولى كلها يا أماه ، وسنقرأ كل يوم صفحة أو صفحتين حتى نفرغ من كتبنا ... حقاً إن بابا نويل لملاك كريم » فردت بت تقول : « ويظهر أنه يجيد الرسم ويحذق التلوين يا أماه ! أنظري صوره الجميلة التي رسمها في كتابي » ... فتضاحكت أخواتها ، ولكن الأم الرزينة لم تضحك ، فتساءلت جو : « لم لا تضحكين يا أماه ؟ فيم تفكرين ؟ في أبي ..؟ سيأتي حالاً ... هو لا شك يفضل أن يقضي عيد الميلاد بيننا ! » فقبلتها أمها قبلة تفيض حناناً وحباً ، ثم قالت : « اسمعن يا صغيراتي ... لقد ذهبت فأحضرت لكن اللعب من بابا نويل ، وحينما كنت عائدة سمعت أنيناً في منزل جارتنا الفقيرة ، فطرقت بابها ففتحت الباب ابنتها الكبرى ، فلما سألتها ما هذا الأنين ذكرت لي أن أمها كانت تلد ، وأنها وضعت غلاماً لا تدري فيم تلفه لتقيه البرد ، وقالت لي إنهم لا يملكون حطباً يستدفئون به ولا طعاماً يأكلونه في هذا العيد السعيد ، فدخلت فسلمت على الأم ، ورأيت وليدها ، ورأيت الصغار محتشدين في الفراش الفقير وهم ينتفضون من البرد ، ويلتصق بعضهم ببعض ليستدفئوا ... وراعني أن يطلب أخوهم الوحيد الأصغر طعاماً فتنظر إليّ أمه ، وتمتلئ عيناها بالدمع ولا تقول شيئاً ... منظر مؤلم حقاً يا جو ... أليس كذلك يا بت ؟ »

وتنظر جو إلى أخواتها ، وتتبلل عيناها بالدمع ، وتقول : « مؤلم جداً يا أماه ! » وتقول إيمي : « وأين بابا نويل ؟ لِمَ لم يرسل إليهم حلوى وفطيراً كما أرسل إلينا ؟ » فتقول الأم : « يظهر أنه نسي يا إيمي ... جو ... أليس يحبنا الله ويدخلنا جناته إذا نحن حملنا حلوانا وفطيرنا ، وذهبنا لنفطر مع هؤلاء المساكين ! »

فتسكت جو لحظة ، وتنظر إلى أخواتها ، ثم تقول : « والله إنها فكرة جميلة يا أماه ... هيا ... سأحمل جوربي كله بما فيه من كستناء وفستق » وقالت بت : « وأنا أيضاً ... ولكن الحلوى لا تشبع الجوعانين ... هاتي الفطير يا حنة » وتقول ماجي : « لا ... سأحمل أنا الفطير ... لتحمل حنا الحطب ... » أما إيمي ، فقد نظرت إلى أمها مرة ، وإلى الكتاب أخرى ، ثم قالت : « وأنا ... سآخذ هذا الكتاب لأفرحهم بصوره ... أنا لا أستغني بحال عن حلواي ! » فضحكت الأم ، وضحكت حنة ، ولكن جو قالت لأختها جادة : « سندخل نحن الجنة ونتركك ببابها يا إيمي ! » فقالت الفتاة وقد صدقت قول أختها : « بل أدخل قبلكن ... سآخذ لعبتي أيضاً ... »

وحملت كل منهن حلواها ... وتذكرت جو اللعب ، وما عساها تبعث فى المساكين من مرح فى هذا اليوم المبارك ، فأسرعت إلى الدولاب فأخرجت كل اللعب القديمة ، وكان فيها (طراطير !) من العام الماضى ، فأحضرتها ، وألبست كلا من أخواتها طرطوراً ، ثم انطلق الجميع بأحمالهن إلى بيت جارتهن .. ولم يكن الشارع قد ازدحم بكثير من المارة ، فكن يتضاحكن مرة ، وينتفضن من البرد الشديد أخرى ...

وطرقن الباب فانفتح ... وتقاطرن داخل البيت ، وأخذن ينشدن نشيد عيد الميلاد ، ويملأن البيت سعادة وبهجة . وقصدن إلى السرير فأيقظن الصغار ... وأسرع هؤلاء وعيونهم تفيض دمعاً ودهشاً .. وجعلوا يحملقون فى الملائكة الأطهار اللائى جئن يسعفنهم بالحلوى والغذاء والسعادة ... أما حنة فقد أوقدت الحطب ... وأما الأم البارة فقد أخذت الوليد من أمه البائسة ولفته فى مزق أحضرتها لهذا الغرض ، ثم جلست تواسى الوالدة المسكينة بكلمات طيبات

وأقبل المساكين والمسكينات على الفطير يلتهمونه التهاماً ، كأنهم قد لبثوا أياماً دون أن يذوقوا طعاماً ... وكان البنات يشهدن ويعجبن ، لأنهن لم يرين ناساً يأكلون بهذه السرعة ، ولا طعاماً يزدرد بهذا الشره ... ولكن جو كانت تنظر وتتألم ثم تصطنع العبث وتجهد أن تضاحك الصغار ما استطاعت ... ثم إنها أخذت الطراطير من أخواتها ، فجعلتها على رؤوس البائسين ... وهنا أخذ هؤلاء يضحكون ويقهقهون ... ونسوا ما كان بهم من فاقة وعوز وجوع ، حين دبت الدماء حارة في أبدانهم من الشبع ، فلما أخذت جو تفرق اللعب القديمة بينهم ثارت بينهم وبينهن عاصفة من المرح ، وسرت فيهم موجة جارفة من السرور ... وقالت فتاة منهن صغيرة : « شكراً لك يا بابا نويل ، لقد حسبنا أنك نسيتنا ، ولكنك أرسلت إلينا اللعب والطعام والحلوى ... والنار ... النار اللذيذة التى تؤججها أمنا حنة ... فشكراً لله وشكراً لك ... وشكراً لأخواتنا هؤلاء .. »

وكانت الأم تصغى إلى ما تقول ابنتها ، وعيناها تفيضان بالدمع .. فتواسيها الأم الأخرى ، وتمسح عبراتها بأطيب الكلم الصالح ..

وعادت العائلة المقدسة أدراجها إلى المنزل

وجلسن حول المائدة كعادتهن كل يوم ، فقدم لهن الفطور العادى من لبن وجبن وخبز ، فأقبلن عليه ، واحتسين الشاى ، وأحسسن إحساساً عميقاً بسعادة فذة فى نوعها ... سعادة لا تقدر الحلوى ولا يستطيع الكستناء ولا الفستق أن يصنع شيئاً منها .. سعادة الخبز والبر ... وسعادة التقوى ... وسعادة الله !

وجلست الأم مع ذاك تشكر بناتها ، وتذكر لهن ما كان يصنع القديسون والشهداء فى هذا اليوم من ضروب الإيثار وفنون التضحية ... وكان البنات يصغين فى لهفة واشتياق ويكاد الدمع ينهل من عيونهن

ونهضت كل إلى لعبتها لتفرح بها

ونظرت إيمى إليهن ... وكانت قد حملت حصانها فأهدته لجماعة المساكين ... ولم يهمها قط أن تكون عاطلا وأخواتها حاليات .. فتأثرت الأم ، وانطلقت معها إلى بائع اللعب ، فاشترت لها حصاناً أكبر من الذى تصدقت به على الفقراء ، فعادت إيمى وقلبها يفيض بالبشر ، وراحت تفاخر أخواتها ، وأخواتها مع ذاك قانعات راضيات

وبينا هن ضاحكات مستبشرات ، إذا بطارق بالباب ، فتمضى حنة لترى ، وتعود لتذكر أن الجار الغنى ، صاحب القصر المنيف القريب ، يريد لقاء سيدتها ...

وتلقاه السيدة فى غرفة زائريها المتواضعة ... ويشدهها منه أن ترى معه سلة كبيرة بها أشياء فهمت أنها هدية ...

— مرحباً يا سيد ! عيد سعيد إن شاء الله !

— عيد سعيد يا سيدتى

ترى ما الذى جاء بهذا الرجل الغني فى هـذا الصباح ؟ لقد عرف عنه أنه رجل عزوف عن الناس ، عزوف لأنه غني ... هو يرى نفسه من طبقة غير طبقة هؤلاء المساكين الذين إذا تصدقوا بحلوى عيد الميلاد لم يجدوا حلوى غيرها ! فماذا جاء به ، وهو هو الذى كان يمر بصاحب هذا المنزل فلا يقرئه السلام من عظمة وكبرياء ... ! لقد كان فيه انقباض دائماً ... وكان يشيح بوجهه عن إخوته من بنى آدم ... فماذا جاء به اليوم ؟ ثم ما هذه

السلة التي غطاها بورق كثيف ؟ هذا تطور عظيم فى حياة هـذا الجار الجافى الغليظ المتكبر ، فما باله يا ترى ؟

— لقد شهدت ياسيدتى ماصنعت صباح اليوم ، فتأثرت من عاطفتك الكريمة وإيثارك العجيب !

— عفواً يا سيدي ... أشكرك

— ولست أدرى إذا كنت مخطئاً ...

— مخطئاً فى أي شيء ..؟

— لقد رأيت أن أقدم لصغارك شيئاً من الحلوى تعوض عليهم ما تصدقوا به ... فلقد علمت منذ أيام أن زوجك الفاضل قد فصل من عمله لخطأ ارتكبه ... وأنتم لا بد فى ضيق مالى ... فإذا تفضلت فأخذت هذا القدر القليل من المال أكون شاكراً

وهنا ... إحلولكت الدنيا بأسرها فى عينى الأم ، وضاع ما شعرت به منذ الصباح من الغبطة والبشر ، وانقلب الهناء الذى غمر قلبها فى عيد الميلاد هماً وغماً وابتئاساً !

— ما ذا تقول ياسيدى ؟

— أقول إننى شهدت ما صنعت للعائلة البائسة ، وتأثرت جد التأثر من صنيعك الجميل ، مع ما أنت فيه من الضيق

— وأنت ما شأنك وما أنا فيه ؟

وارتبك الرجل وتلعثم لسانه ، وأنشأ يقول :

— لا ... لا ... شيء ... فقط ... أدرت أن أساعدك !

— على كل حال أنا أشكرك ، ولكنى أسائلك : هل بهذا الأسلوب تفهمون الخير أيها الأغنياء ؟

— لا أفهم ما تقولين !

— لا تفهم ما أقول ، فكيف إذن فهمت أننا محتاجون ، ولم تفهم أن جارتنا البائسة كانت فى أشد العوز والحاجة إلى مساعدة أمثالك !

— هذا حق ... هذا لا ريب فيه

— وما دام هذا حقاً ، فلم لا تفعل ؟!

— لقد أخطأت

— إذن لقد أحضرت لنا حلوى فى هذه السلة ؟

— أجل ... لقد فعلت ؟

— وماذا دفعك إلى هذا ؟

— محبة الخير ، وتأثرى بما شهدت

— وكيف لم تتأثر بماعلمت من بؤس جارتنا ؟

— لا أدرى والله !

— إذن تذهب إليها بهذه السلة فهى فى أشد الحاجة إليها ، ولا تنس أيضاً أن تنفحها بالمال الذى أعددته لنا ...

— سأفعل ! اسمحى لى بالانصراف إذن !

— لا ... انتظر قليلا ! أتحب يسوع أيها العزيز ؟

— وكيف لا أحبه !

— إذن فاخرج من مالك عن شيء يكفل الستر لجارتنا .. فانك غنى جداً ... أتعرف أن زوجها قد مات ؟

— لا والله ... لم أكن أعرف !

— إذن لقد عرفت مبلغ فاقتها !

— ... ؟ ...

— إذن فانك خارج عن بعض مالك لها ولأبنائها ... هل علمت أنها وضعت غلاماً سادساً اليوم ؟

— لا والله ... لم أدر إلا منك !

— إذن فقد لمست بيديك مبلغ حاجتها إلى بر أمثالك !

— ... ؟ ....

— انطلق إذن ! سأزورها اليوم وسأرى ما ذا تصنع !

* * *

وانطلق الغنى ذو الجاه والثراء الضخم ... ولكن ... إلى داره

وبعد ساعة أو نحوها طرق البيت صاحب الدار ، ووجهه طافح بالبشر ، ضاحكاً متهللاً ... وزف البشرى إلى زوجته ، وأخبرها أنه بُرِّئ وعاد إلى عمله ، ومنح مكافأة مالية ... وقد أحضر حلوى كثيرة لأطفاله ، ولعباً شتى لعيـد الميلاد ... فلما قصت عليه قصة الصباح ، وما كان من أمر جارهم الغنى ، تمتم وعيناه تغرورقان بالدمع : « إذن .. تعيش المرأة وأولادها معنا..»

دريني خشبة



الآداب والشعر عند المصريين القدماء

ألقى العلامة الأستاذ الدكتور شايدل أستاذ الأثريات المصرية بجامعة لا يبزج محاضرة شائقة في متحف الجامعة على الآداب والشعر عند الفراعنة ، فذكر أن الفراعنة فضلا عما تركوا لنا من النقوش وأوراق البردى الأثرية الفياضة بالمعلومات التاريخية والقضائية والطبية ، قد تركوا لنا تراثاً أدبياً بمعنى الكلمة ؛ فمن ذلك باب القصص الخرافى ، وقد ترك الفراعنة لنا منه نوعاً معروفاً هو القصص المتعلق بدخول اللصوص إلى غرف الكنوز الملكية ومن إحدي هذه القصص اقتبس الشاعر الألمانى بلاتن مسرحيته المشهورة : « كنز رامسنيت » ، وهناك نوع آخر من القصص النثرى يتعلق بتواريخ الملوك وسير الآلهة ، وتمجيد الحوادث التاريخية الهامة . أما الشعر الغنائى فانه يتمثل في الأناشيد الدينية الحماسية والتوسل إلى القوة العليا . ومن أناشيد الحب التى تمثلها أنشودة سالومنيس . وقد وجدت على جدران القبور أغنية عمال ، ومنها أنشودة شهيرة تجرى على لسان الذين يحملون الهودج ويختتمونها بطلب العطية . على أننا نجد أعظم ثروة أدبية للفراعنة فى كتب الموتى التى توضع فى التابوت إلى جانب الموتى ، ففيها أقوال ومواعظ أخلاقية ، وفيها أحاديث الحكمة التى تشرح للناس كل شئون الحياة ، وتصرف الانسان إزاء الضيف ، وإزاء المستجير ، وعلاقة الزوجين وواجباتهما . وفى هذه الأحاديث نجد الأدلة على سمو تفكير المصريين القدماء . ومما هو جدير بالذكر أن الشعر عند الفراعنة لم يصدر عن لسان شاعر بعينه ، ولكنه صادر عن مجموعة الشعب وباسم الشعب

العلم والدين

كانت العلاقة بين العلم والدين وما تزال من أهم المسائل التى تشغل الذهن البشرى فى كل عصر وقطر ؛ وقد كان لها فى تفكيرنا العربى نصيب وافر ، ولابن رشد الفيلسوف فى ذلك رسالة شهيرة . على أنها اتخذت فى العصر الحديث صورة نضال عنيف بين الدين والعلم على أثر الاكتشافات البيولوجية والطبية الحديثة التى قام بها علماء مثل داروين ولامارك فى أصول الأنواع وغيرها . وأنكر بعض العلماء الأقطاب مثل باستور أن يكون بين العلم والدين اتصال أو اتفاق . ورأى مفكرون من الغلاة مثل الفيلسوف مكس نرداو أن العلم يهدم الدين ؛ ولكن رأى كثير من العلماء أيضاً أن لا تناقض بين العلم والدين ، وأن الوفاق بينهما ممكن غير مستحيل

وقد صدر أخيراً فى هذا الموضوع كتاب خطير بقلم العلامة الدكتور جورج ريجار الأستاذ بجامعة لوزان عنوانه « دراسة بيولوجية وعلمية لمسائل الدين العظمى» Etude biologicpe et Scientifique des grands problémes réligieux والدكتور ريجار طبيب وعالم بارع ، وهذا ما يسبغ على بحثه قيمة خاصة . وقد تناول فى كتابه جميع المسائل الهامة التى تتعلق بهذا الموضوع الدقيق ، مثل الجبر ، والتحكيم الحر ، والأخلاق البيولوجية ، والمعاناة والألم والله والدين . ويلجأ المؤلف فى عرضه لهذه الموضوعات الدقيقة إلى الوقائع المادية ، ثم يستخلص منها النتائج الفلسفية والأخلاقية . ومما يلفت النظر أنه على رغم مادته العلمية الخالصة يبدو مؤمناً ، وهو يحاول أن يدعم إيمانه بالأدلة العلمية والعقلية ، ويقدم أدلته بصورة متزنة معقولة ؛ وهو يعارض بشدة أولئك الذين يرون فى العلم عدواً لدوداً للدين . على أنه يرى من جهة أخرى أن التعاليم الدينية يجب أن تتطور وأن تساير العقل الوضعى حتى يمكن أن يفتح الطريق لقيام العقائد الروحية فى صورة تلائم اتجاهات التفكير الحديث

وعلى مثل الدكتور ريجار نشر العلامة الأثرى الدكتور فيجال أخيراً رسالة يدلل فيها على أن المباحث الأثرية والتاريخية فى تراث مصر القديمة تقدم إلينا كثيراً من الأدلة والحوادث المادية التى تتفق تمام الاتفاق مع منطوق كثير من السير والتعاليم الدينية

الرافعي وخصومه

أخي الأستاذ الزيات

تحيتي إليك، وإلى الوجوه التي أحبها بنادي الرسالة، وجوه الأدباء الأمجاد الذين يرون في مسامرتك معاني لا يجدونها في الطواف بشارع فؤاد وشارع إبراهيم وشارع ...

وبعد فهل تعلم أني صبرت طويلاً على الأستاذ محمد سعيد العريان؟ لقد صبرت عليه لغرض نبيل يعرفه، ويعرفه أصدقاء تحملهم أقدامهم إلى الزمالك ومصر الجديدة. ولكنْ للصبر حدود، فقد شاء أن يسم أدباء مصر بميسم العقوق حين زعم أن خصوم الرافعي لم يرثوه. وهو قد شاء أن يضيفني إلى خصوم الرافعي مع أن الخصومة لم تشبّ بيننا غير خمس مرات. وإن الجزع ليبلغ مني كل مبلغ حينما أتذكر أني كنت آخر من خاصمه الرافعي في دنياه، ولكن الأديب العريان نسي أو تناسى أني كنت أول من رثى الرافعي في خطاب نشرته جريدة المصري، وأثنى عليه كل الذين قرؤوه وعدوه دليلاً على وفاء الخصوم الشرفاء

ولم أتفرد برثاء الرافعي يوم مات، فقد رثاه الأستاذ المازني بمقال بليغ نشرته جريدة البلاغ، ونشرت الرسالة وغيرها مقالات كثيرة تشهد بأن المصريين لم ينسوا ذلك الفقيد

فكيف صح للأستاذ العريان أن يزعم التفرد بأحياء ذكرى الرافعي؟

إني أرجوه أن يتثبت مما يقول، فإن له في هذه المقالات أخطاء كثيرة. وقد آذاني ما كتبه عن (فلانة) التي جلست مني جنباً إلى جنب أربع سنين في الجامعة المصرية، وعرفت من شؤونها مالا يعرف. وآذاني وآذى الحقيقة بما كتب عن الدكتور طه حسين، لأنه يوهم قراءه بأن الرافعي كسب المعركة، مع أن التاريخ الذي نسيه يشهد بأن الدكتور طه حسين كان معقول القلم واللسان بفضل الإشارات التي صدرت إليه بأن يترك العاصفة تمر حتى لا يُهزم أنصاره أمام الحكومة وأمام البرلمان

وجملة القول أن ما كتبه ذلك الأديب عن خصوم الرافعي يحتاج إلى تصحيح. فإن لم يرجع إلى الأسانيد فسنعاونه على تحرير هذه المسائل بعد حين. والسلام

زكي مبارك
ضيف العراق

الاحتفال بتوزيع جوائز نوبل

قرأنا في البريد الأخير تفاصيل الاحتفال الفخم الذي أقيم في ستوكهلم في العاشر من ديسمبر احتفاء بتوزيع جوائز نوبل على مستحقيها من مختلف الأمم. والعاشر من ديسمبر هو تاريخ وفاة الفرد نوبل المخترع السويدي الكبير وواقف هذه الجوائز الشهيرة

وعقد الاحتفال في بهو الموسيقى الكبير بحضور ملك السويد وأعضاء الأسرة الملكية، ورجال الحكومة، وممثلي الدول الأجنبية؛ وبعد أن ألقى رئيس لجنة الهبة خطابه قدم الفائزين بالجوائز تباعاً، وكان كل يتسلم من يدي ملك السويد التحويل المالي والشهادة الفخرية والشارات الذهبية التي يستحقها. وكان أول المتقدمين الأستاذان: دافيد سون الأمريكي، وتومسون الانكليزي، وقد نالا معاً جائزة العلوم الطبيعية، وكلاهما قام بأبحاث هامة في مسألة تعرض البلور للتيارات الكهربائية. ثم تقدم الأستاذان هوارث الانكليزي وكارير السويسري، وقد نالا معاً جائزة الكيمياء، وذلك لمباحثهما عن أنواع الفيتامينات. وتلاهما الأستاذ زنت جيرجي المجري وقد نال جائزة الفسيولوجيا والطب من أجل مباحثه في عمل الأكسوجين والهيدروجين في حرق أغذية الجسم البشري. ثم تلاه الكاتب الفرنسي روجيه مارتان دوجار الذي فاز بجائزة الأدب من أجل قصته الشهيرة «آل تيبول»

وأقيمت في مساء نفس اليوم في «البهو الذهبي» مأدبة فخمة جريا على الرسوم المعتادة وخطب فيها مسيو دوجار، فنوه بالدور العظيم الذي تؤديه الآداب لخدمة السلام، وقال إنه يعتبر أن فوزه بجائزة نوبل لم يكن من أجل كتابه فحسب، ولكن بالأخص من أجل المعنى السلمي الذي يمثله هذا الكتاب، وما ورد فيه عن صيف سنة ١٩١٤ من الصور المؤثرة، وأن في عبر الماضي ومآسيه ما يكفي لأن يحمل الأمم على التبصر والاعتبار

إليك

قرأت في كلام أديب مشهور هذه العبارة: «إليك الدينار في سبيل فلانة» يقصد بإليك هاك، خذ. فتذكرت نقد الأستاذ عبد العزيز الميمني في (سمط اللآلى) وهو «الذي يستعمله المصريون كلهم ولا أستثني منهم أحداً، إليك بدل هاك هو غلط فاحش» والنقد حق، وقوله «لا أستثني منهم أحداً»

باطل وخطأ متفاحش . وهذا الإطلاق شيء عجيب ، ففي العصر كثيرون لم يغلطوا فيما نقده ، منهم حضرته (أعني الأستاذ الميمني) وإن غلط في غيره ...

وإليك من أسماء الفعل . قال سيبويه في (الكتاب) : « وإليك إذا قلت : تنحَّ . وحدثنا أبو الخطاب أنه سمع من العرب من يقال له : إليك ، فيقول : إليّ ، كأنه قيل له : تنحَّ ، فقال : أتنحّى »

وفي (النهاية) : « وفي حديث الحج : وليس ثمّ طرْد ، ولا إليك ، إليك ، هو كما يقال : الطريق الطريق ، ويُفعل بين يدي الأمراء ، ومعناه تنحّ وابعدْ ، وتكريره للتأكيد »

وممن غلط في (إليك) هذه من المتقدمين مهذب الدين احمد ابن منير الطرابلسي في قصيدته المشهورة التي مطلعها :

عذبتَ قلبي يا تَتَرْ وأطرت نومي بالفِكَرْ

فقال في أحد أبياتها :

وإليكها بدويةً رقت لرقتها الحضرْ

(الاسكندرية) (***)

فردنند دلسبس ومحمد سعيد باشا

لفردنند دلسبس صفحة من تاريخ مصر الحديث تجمع بين مجده الباهر وشقاء المصريين بهذا المجد ... وقد قرأنا كتاباً ألفه عن هذا الفرنسي الكاتب المؤرخ الكبير هـ . ج . سكونفيلد وأصدره منذ أسابيع ، وتناول فيه بطبيعة الحال نشأة دلسبس والصداقة المتينة التي كانت بين والده وبين عزيز مصر الكبير محمد علي . وأول مجيء دلسبس ليعمل قنصلا لفرنسا (الذي نعرفه أنه عين مساعداً للقنصل الفرنسي في مصر) في الديار المصرية ، وكيف قرأ كتاب المسيو لوبير مهندس الحملة الفرنسية عن مشروع شق قناة تربط البحر الأحمر بالبحر الأبيض إذ هو في المحجر الصحي قبل دخوله مصر ... ثم الصداقة التي توثقت بين الأمير محمد سعيد وبين دلسبس والتي عقدت أواصرها (أطباق المكرونة !) تلك الأطباق التي كان لها الفضل الأكبر في شق قناة السويس ... وقد أغرقنا في الضحك المزوج بأشد الآلام عند ما قرأنا ما ذكره المؤلف من حديث هذه المكرونة العجيبة وهو تخريج سيكلوجي عجيب يقفنا على الطرائق الحديثة في كتابة التاريخ ، ومدى ما يلقف به المؤرخون براهينهم في تعليل الحوادث ... فلقد ذكر المؤلف أن محمداً علياً لم يعجبه أن يرى ولده سعيداً ذا جسم ضخم كثير اللحم والشحم فحرم عليه ألواناً من الطعام وأمر ألا يقدم إليه شيء منها ، ثم عهد به إلى فردنند ابن ماتيو دلسبس صديقه الحميم فعلمه ركوب الخيل وحبّب إليه فنوناً من الألعاب والرياضة البدنية ... ولكن هذه الرياضة كانت تجهد الأمير الصغير وتورثه جوعاً شديداً ، ولم تكن مقادير الطعام التي تقدم إليه لترد مسغبته ، فكان ينسرق من القصر ويهرول إلى منزل فردنند فتقدم له هناك أطباق المكرونة ، فيقبل عليها إقبالاً شديداً ... ومن هنا ، تضاعف هيام سعيد بفردنند ، فلما ولي أمر مصر بعد عباس ، كان فردنند قد ترك القطر وتقلب في مناصب سياسية هامة أشهرها هذا المنصب الذي مهد له القيام بالدور الخطير الذي لعبه في سبيل تقريب وجهة النظر بين دولته ، والجيوش الفرنسية وبين زعيم إيطاليا مازيني ... وما إن علم فردنند بتربع صديقه سعيد على أريكة مصر حتى أرسل إليه يهنئه فأرسل إليه سعيد يستدعيه ... وكانت ذكريات أطباق المكرونة أول حديث دار بينهما بعد هذا الفراق الطويل ... وفي نفس اللحظة تكلم دلسبس عن مشروع قناة السويس فوافقه سعيد باشا ونسي وصايا أبيه بوجوب الإعراض عن هذا المشروع ... ومن المؤرخين من يعزو نجاح المشروع إلى شغف سعيد باشا بركوب الخيل ، وإعجابه بدلسبس كراكب ماهر ... وسيان ...

تجديد قصر هشام بن عبد الملك

من أخبار دمشق أن مدير الآثار كتب إلى وزارة المعارف السورية يطلب إليها رصد ٢٥ ألف ليرة سورية في ميزانية دار الآثار لتجديد قصر هشام بن عبد الملك المكتشف في قرية الحير وإلحاق هذا القصر ببناء متحف دمشق الجديد

وقد كتبت الوزارة إلى رياسة مجلس الوزراء للموافقة على هذا المبلغ فعاد الجواب بالموافقة بعد أن اتخذ المجلس قراراً رقم ١٩٥ بهذا الشأن

لذلك أرسلت وزارة المعارف إلى رياسة المجلس النيابي استناداً على كتاب مدير الآثار بلزوم اعتماد المبلغ المذكور في ميزانية الآثار لتتمكن من إعادة قصر هشام الذي يعد من أكبر الآثار في البلاد السورية ونظراً لقيمته من الوجهة التاريخية والأثرية

مدارس الفوهرر العجيبة

لاتنى النازية الهتلرية تبتكر الغرائب لخلق ألمانيا الجديدة . ومن آخر أنبائها أنها اعتزمت إنشاء أربع مدارس حديثه ليتعلم الشبان فيها مايسمونه هناك Nazi Weltanschauung أو مراقبة التطور العالمى ، أومايعني بالانجليزية World outlook ، إن خاننا التعبير العربى . وستضم كل من هذه المدارس ألف تلميذ من خيرة شباب ألمانيا ؛ ويختار طلبتها بشروط خاصة من حيث الذهن والجسم . ويمكث تلاميذ كل مدرسة عاماً واحداً فى مدرستهم ينقلون بعده إلى مدرسة أخرى — فيبدأ التلاميذ تعلمهم فى مدرسة پوميرانيا التى تبعد عن شمال برلين أربع ساعات بالقطار ، ثم ينقلون إلى المدرسة الثانية عند الحدود البلجيكية ليلبثوا بها عاماً ينقلون بعده إلى المدرسة الثالثة عند شاطئ بحيرة كونستانس فى أقصى الجنوب ، ثم ينقلون إلى مدرسة مارينبرج عند الحدود الشرقية . وسيتعلم التلاميذ فى هذه السنين الأربع أرق الأساليب السياسية وفن الحياة على أن تناط بهم بعد تخرجهم كل الوظائف التى يراد بها تنوير الشعب وقيادته وبث روح الوطنية بين أفراده . ومعنى هذا أن يأتى يوم لا يتولى وظيفة من وظائف الدولة رجل جاهل بما تتطلبه الدولة ويقتضيه مستقبل ألمانيا ... أما كيف يعد الأطفال للالتحاق بهذه المدارس فتتولى الدولة انتخاب الصبية فى سن العاشرة على أن تلحقهم بمدارس خاصة حتى يبلغوا الثانى عشرة ، ثم ينخرطون بعد ذلك فيما يسمي (معسكر العمل) حيث يقضون ستة أشهر يباشرون خلالها أعمالاً عامة تعودهم شظف العيش والحياة الخشنة ، حتي إذا انتهت الأشهر الستة انخرطوا فى صفوف الجيش حيث يعملون فى فصائله المختلفة لمدة عامين يلتحقون بعدها فى وظائف الدولة لمدة سنة يستطيع كل منهم خلالها أن يتزوج ويكون أسرة ؛ فاذا تصرم العام اختير من بين الجميع ألف طالب كدفعة أولى لمدارس الفوهرر ، ويطلق عليهم حينئذ لقب Junkers أو الشباب (الجنتلمان) — وسيتحرى فى اختيار هؤلاء أن يكونوا جميعاً من طول واحد ، وأن تكون صدورهم من مقاس متفق عليه ، وأن يكونوا ألمانيين خلصاً ومن جنس نوردى آرى لم يمتزج بدم جنس آخر إلى ما قبل سنة ١٨٠٠ ... وسينشئون فى هذه المدارس تنشئة أسبرطية بكل معانى الكلمة فيزاولون الرياضة ويشبون على الشجاعة والإقدام والتضحية

أما المنهاج الدراسى ، فسيتعلم التلاميذ فى مدرسة پوميرانيا ثقافة العصرين الحجرى والحديدى ... وبالطبع سيقحم مجد ألمانيا فى هذين العصرين إقحاماً قومياً ... وفى مدرسة الحدود البلجيكية سيلقنون دروساً فى الديانة المسيحية باعتبارها إحدى السياسات التاريخية فينقد المذهب البروتستانتى كما ينقد المذهب الكاثوليكى بحرية مطلقة ... أما فى مدرسة الجنوب الباقارية فسيتعلمون النازية الحديثة وعلم الأجناس الجديد من وجهة النظر الهتلرية ... فإذا ذهبوا إلى مدرسة الحدود البولندية تعلموا ثمت فنون الدعاية الجديدة والمشروعات المتعلقة بسياسة ألمانيا الشرقية كما تناولها هتلر فى ال Mein Kampf

وليتساءل القارىء بعد هذا : إلى أين تسير ألمانيا ؟ !

جوائز جونكور وفمينا

منحت أكاديمية جونكور أخيراً جائزتها السنوية للكاتب البلجيكى شارل بلسنييه Ch. Plisnier من أجل كتابه «الزواج» Mariages الذى صدر منذ عام ؛ وهذه أول مرة تمنح فيها هذه الجائزة الفرنسية كاتباً غير فرنسى ، وليس فى قانون أكاديمية جونكور ما يحرم نيل جائزتها على غير الفرنسيين ؛ ولكنها تجرى في ذلك منذ نشأتها على تقاليد الأكاديمية الفرنسية التى تقضى بألا يتشرف بعضويتها غير الفرنسيين . ولكن حدث فى صيف هذا العام أن زار وفد كبير من أعضاء الأكاديمية البلجيكية زملاءهم أعضاء الأكاديمية الفرنسية ، وكانت الكاتبة الشهيرة كوليت قد منحت عضوية الأكاديمية البلجيكية ، لأن النساء لا يقبلن فى الأكاديمية الفرنسية ، فرأت أكاديمية جونكور من جانبها أن تخرج على تقليدها القديم ، وأن تمنح جائزتها للكاتب المتفوق فى الكتابة بالفرنسية ، واختارت لذلك شارل بلسنييه

ونالت مدام رايمون فنسان جائزة « فمينا » عن روايتها « الريف » Campagne ، وهي كما يدل عنوانها قصة تصف الحياة الريفية . وقد نشأت مدام فنسان نشأة ريفية ولم تتلق دراستها المدرسية إلا فى سن متأخرة ، ولكنها تتمتع بمواهب أدبية بديعة

ونال الكاتب الناقد رومان روسل جائزة الحلفاء الأدبية عن روايته « واد بلا ربيع » La Vallée Sans-Printemps



أبو تمام والمقتطف

لأستاذ جليل

قالت مجلة (المقتطف)[1] الغراء في حديثها عن كتاب (أخبار أبي تمام) للصولي: «أبو تمام أمير من أمراء العصر العباسي، خرج لأهل عصره بجديد لم يألفوه فخرجوا عليه، وساعد في ذلك وجود البحتري فناصره الناس، وفضلوا رقته ورشاقة ديباجته على تعاظل أبي تمام وتعمقه، وطالت الخصومة، وكسب الأدب منها ما كسب من كتب النقد، وكان مما كسبه كتاب الصولي الذي أراد به الانتصار لأبي تمام على كتاب الآمدي (الموازنة بين أبي تمام والبحتري) الذي ناصر فيه مؤلفه البحتري

***

قول المقتطف: (أبو تمام أمير من أمراء العصر العباسي) فيه بعض التسامح، فما كان حبيب أميراً من الأمراء، وما ترفعه عندنا إمارة، ولن تخفضه قروية؛ وفلاح عامل أو عالم خير من آلاف من أمراء أغبياء كسالى، وقد كان ابن أوس فلاحاً ابن فلاح من قرية جاسم

***

قول المقتطف: (خرج لأهل عصره بجديد لم يألفوه فخرجوا عليه) فيه لبس كثير، فقد جاء أبو تمام بما جاء به ورأى الناس إبداعاً ونبوغاً وعبقرية فبهرهم ذلك واستجادوه واستجزلوه وتقبلوه (ولم يخرجوا على صاحبه) ولم ينكر ذلك الشعر العُلْوي[2] العبقري ولم يعبه إلا جاهل أو حاسد أو عدو. ومتى تخلص النابغون أو العبقريون من منا كرين ومعادين؟ وإن عاب الطائي مثل ابن الأعرابي ودعبل فقد أجله أيما إجلال مثل المبرِّد وابن الزيات. وقصة أرجوزة حبيب وابن الأعرابي (وهي مشهورة) تبين مقدار العداوة إذا اشتدت وجارت. ودعبل، أقواله وأهاجيه مساخر دعبلية ... وقد أعلن أبو الفرج في كتابه (الأغاني) والصولي في (أخبار أبي تمام) مقاصد ناقدين في نقدهم حبيباً. قال أبو الفرج: «هم أقوام يتعمدون الرديء من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه، ويستعملون القحة والمكابرة في ذلك ليقول الجاهل إنهم لم يبلغوا علم هذا وتميزه إلا بأدب فاضل وعلم ثاقب» وقال الصولي: «صنف أَلَّف في الطعن عليه كتبا ليجرى له ذكر في النقص إذ لم يقع له حظ في الزيادة، ومكسب بالخطأ إذ حُرِمَه من جهة الصواب» وإن شاعراً أخمل في زمانه خمسمائة شاعر — إلا واحداً — كلهم مجيد لا يستبدع أن يعاديه معادون، وينبحه شويعرون، وينفر عليه ويغلى شعراء مبرزون. ومن يقرأ شعر ابن الرومي في البحتري يستعجب ويستغرب في الضحك، يقول في مقطوعة خلاصتها: «أن الشاة لا تجزع من ألم الذبح ولا السلخ لكنها تشفق أن يكتب في جلدها شعر البحتري»

***

قول المقتطف: «فناصر الناس البحتري وفضلوا رقته ورشاقة ديباجته على تعاظل أبي تمام وتعمقه» هذا القول هو الظلم العبقري[1]، والمعاظلة معانٍ كلها شر؛ والتعمق هنا هو التنطع. وهذا تصوير لشعر ابن أوس مستشنَع، ووصف منكر. ولو قالت (المقتطف) وفضلوا رقة البحتري على جزالة أبي تمام لاقتربت من الحق، فقد قال صاحب (المثل السائر): «اعلم أن الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر، فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوى دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج؛ ولهذا ترى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا

(١) جزء دسمبر ٣٧ (٢) شعر علوي: عالي الطبقة

(١) الظلم العبقري: الشديد قال: ظلم لعمر الله عبقري

خيولهم ، واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد . وترى ألفاظ البحتري كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلى [١] » وهي طبيعة المرء (أو مزاجه) تدعوه إلى طريقة في القول بل عقيدة في الدين فيستقيد لها ويستجيب. ولن تضير ذا الرقة رقته ، ولن تعيب ذا الجزالة جزالته ؛ وقوة حبيب ماحرمته لطفاً ، وسهولة البحتري ما منعته فحولة . فوصف صاحب المثل هو قول عدل في شعر الطائيين من جهة الألفاظ ؛ وأما من جهة « الاستخراجات اللطيفة والمعاني الطريفة » كما يقول المبرد أو لطف المعاني وسموها أو العبقرية الشعرية ، فالبحتري دون أبي تمام ، والوليد في ذلك تلميذ حبيب . وما أصدق البحتري إذ يقول : « أنا والله تابع لأبي تمام ، لائذ به ، آخذ منه ، نسيمي يركد عند هوائه ، وأرضي تنخفض عند سمائه [٢] » وفي (الموشح): « سرقات البحتري من أبي تمام نحو خمسمائة بيت » وعندي أنها أكثر مما قال . وهنا نكتة تروى في هذا المقام : رآني ذات يوم أديب شاعر أقرأ في كتاب فقال : ماهذا ؟ قلت : شرح ديوان أبي تمام . فلما أبصر الكتاب وعرفه قال : هذا ديوان البحتري. قلت : نعم . ففهم النكتة . وليس القصد من هذا الكلام تنقص البحتري وتهجينه ، بل تقرير الحق وتبيينه . والبحتري هو صاحب القول الطل الجميل ، وهو في الشعر العربي ثالث ثلاثة ما جاء قبلهم ولا بعدهم مثلهم . وأستاذ الاثنين — على إبداعهما وعلوهما — هو حبيب . وإن شئت فقل كما قال المتنبي : « حبيب أستاذ كل من قال الشعر بعده [٣] » وأبو الطيب يدري بما يقول ، ويعرف ما يعني ، وهو خريجه وإن لم يجثُ بين يديه ، ومعاني أبي تمام في أبيات المتنبي سوافر غير متلثمات ، ينطقن بالحق فصيحات

وعناية حبيب بألفاظه مثل عنايته بمعانيه لا كما جاء في (موازنة الآمدي) : « إن اهتمامه بمعانيه أكثر من اهتمامه بتقويم ألفاظه ، وأنه إذا لاح له المعنى أخرجه بأي لفظ استوى من ضعيف أو قوي » فإن هذا قول باطل ، الحق يعانده ، والأدلة تدحضه ، وسبك حبيب العجيب يكذبه ؛ فليس في العربية شاعر احتفل في المعنى واللفظ معاً احتفال أبي تمام ، فهو إذا غزا المعنى العالي أنزله من اللفظ في خير مكان ؛ فهو محكم المعنى مرصّن اللفظ « وإذا لم ينهض بالمعنى الشريف الجزل لفظ شريف جزل لم تكن العبارة واضحة ، ولا النظام متسقاً ؛ وتضاؤل المعنى الحسن تحت اللفظ القبيح كتضاؤل الحسناء في الأطمار الرثة » [١] . وفي (العمدة) لابن رشيق قال : « قال بعض من نظر بين أبي تمام وأبي الطيب : إنما حبيب كالقاضي العدل يضع اللفظة موضعها ، ويعطي المعنى حقه بعد طول النظر والبحث عن البينة ، أو كالفقيه الورع يتحرى في كلامه ويتحرج خوفاً على دينه ؛ وأبو الطيب كالملك الجبار يأخذ ماحوله قهراً وعنوة ، أو كالشجاع الجريء يهجم على ما يريده لا يبالي ما لقي ، ولا حيث وقع »

وقد حقق حبيب جل شعره ، وأحكم نظم أكثره ، وله المتوسط ، وله الرديء ، والجيد جيد ، والغث غث ، فصف كلا بصفته ، ولا تلبس الحسن بالقبيح ، وخذ الطيب وذر الخبيث ، « وليست إساءة من أساء في القليل وأحسن في الكثير مسقطة إحسانه » كما قال أبو الفرج

***

قول المقتطف : (وكان مما كسبه كتاب الصولي الذي أراد به الانتصار لأبي تمام على كتاب الآمدي : الموازنة بين أبي تمام والبحتري) فيه تسامح كثير ، فقد ألف الصولي كتابه والحسن ابن بشر الآمدي شادٍ لم يجادل ولم يوازن ولم يؤلف شيئاً . وليس في الكتابين دليل على أن أحدهما قصد مناقضة الآخر . فالصولي ينعى على جماعات مقالات لهم زائغة ، والآمدي يوازن بين الطائيين وضلعه مع الوليد على حبيب . وممن ينعيهم الصولي أدعياء في الأدب أو علماء من دعاة القديم ، والآمدي أديب يكبر الشعراء المحدثين .

***

المقتطف مجلة أجلها ، وكيف لا أعظم صحيفة كريمة منشئها علامة العرب ومعلمهم (الدكتور يعقوب صروف) لكنها قالت فقلت

قارئ

(١) راجع (زهر الآداب) الثالث ، (الصفحة ٢٠) : (أبو تمام والبحتري) فهناك حديث طريف يبين شيئاً من قدر حبيب
(٢) الموشح للمرزباني (٣) الصبح المنبي

(١) العقد ، والعبارة الأخيرة من قول أبي تمام :
كسيت سبائب لؤمه فتضاءلت كتضاؤل الحسناء في الأطمار

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧